wadod.org

عدد خاص

الذخائر

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالآثار والتراث والمخطوطات والوثائق

بمناسبة مرور ١٤ قرناً على تأسيس مدينة الكوفة - الأصدار الأول

في هذا العدد:

- مدينة الكوفة منذ تأسيسها حتى نهاية العهد الأموي: ..... د. أزهر أحمد العاني
- الكوفة الغراء، أرض الرسالات السماوية وعاصمة الخلافة الاسلامية: ..... أ.د. محمد حسين علي الصغير
- الكوفة ، رحلة في تأريخية الاسم: ..... أ. معن حمدان علي
- الحركة الفكرية في الكوفة في العهود الإسلامية الأولى: ..... د. هادي حسين حمود
- موقف البصريين من ا لكسائي الكوفي: ..... أ.د. رشيد عبد الرحمن العبيدي
- استقرار قبيلة همدان في الكوفة حتى نهاية العصر الأموي: ..... أ.د. محمد كريم ابراهيم الشمري
- القصيدة المنفرجة، لابن النحوي التوزري(٤٣٣-٥١٣ هـ) .. تقديم وتحقيق : د. زهير غازي زاهد
- منطقة القادسية ، دراسة تاريخية جغرافية، استكشاف أثري جديد: ..... أ. كامل سلمان الجبوري
- مؤرخ الكوفة ، البراقي: ..... أ. معن حمدان علي
- فهرس مخطوطات مكتبة الروضة الحسينية . القسم السابع : ..... أ. سلمان هادي طعمة آل طعمة
- قبر بهاء الدين الإربلي: ..... أ. معن حمدان علي
- نسب الاسرة الحيدرية وتحقيق السلسلة الحيدرية: ..... أ. محمد علي القره داغي

إصدارات ..... إعداد : أ. حسن عريبي الخالدي

الذخائر

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالآثار والتراث والمخطوطات والوثائق

٨

العدد الثامن السنة الثانية - خريف ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

صاحب امتياز ورئيس تحريرها

كامل سلمان الجبوري

wadod.org

wadod.org

شيء من تاريخ الكوفة:

مدينة الكوفة
منذ تأسيسها حتى نهاية العهد الأموي

الدكتور: أزهر أحمد العاني

الكوفة: هي ثاني مدينة مُصِّرتْ في الإسلام، ثم أصبحت من المراكز الزاهرة للعلم والحضارة الإسلامية العربية. وللكوفة تاريخٌ سياسيٌ وحضاريٌ حافل، فمنها اتخذ الامام عليٌ (ع) أول عاصمة عراقية للاسلام، وفيها استشهد بعد أن زرع هو وعددٌ من قادة الفكر الإسلامي، أمثال عبد الله بن مسعود، وكميل بن زياد النخعي، وأبي الأسود الدؤلي، غرساتٍ فكرية ما لبثت أن أينعت وأتت ثمارها بعد أن أصبحت الكوفة وربيبتها البصرة أعظم مركزين للفكر العربي الاسلامي خلال العهد الأموي.

وسنأتي على ذكر بعض التفصيلات عن تأريخ هذه المدينة فنقول:

معنى كلمة الكوفة: لو بحثنا معنى كلمة الكوفة لوجدنا أن المصادر توردُ لها معانٍ عديدةٍ، فالبلاذري يقول: «ان المواضع المستديرة من الرمل تسمى كوفاني، وبعضهم يسمى الأرض التي فيها الحصباءُ مع الطين والرمل كوفةً». وفي رواية أخرى يرى البلاذري: ان اسم الكوفة مشتقٌ من التكوف الذي هو بمعنى الاجتماع[1]. ويورد ياقوت المعاني التي أوردها البلاذري لمعنى كلمة الكوفة، ويقول عند كلامه عن كلمة كوفان: إنها اسم أرض وبها سميتْ الكوفةُ، وان كوفانَ والكوفة واحد. ويستشهد ياقوت بأبيات من الشعر لعلي بن محمد الكوفي المعروف بالحمّاني نوردُ منها البيت التالي:

ألا هـــل مـــن سبيـــلٍ إلـــى نظـــرةٍ بكـــوفـــان يحيـــى بهـــا النـــاظـــران[2]

واختلف الباحثون المحدثون في أصل كلمة الكوفة، وهل هي كلمة عربية أم أنها

---

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان (القاهرة، ١٩٣٢) ص ٢٧٥.

(٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج ٧ (القاهرة، ١٩٠٦) ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

wadod.org

أعجمية؟ وكان الأستاذ يعقوب سركيس من بين من قالوا بأنها أعجمية. واستنتج الأستاذ المذكور بعد مناقشة للمصادر المختلفة، بما فيها الكلدانية، أن الكوفة محرّفة عن كلمة «كـوبا» الكلدانية[١]. أما الأستاذ ماسنيون، فيرى أن كلمة الكوفة ترجمة لكلمة «عاقولا» بالسريانية. وتعني تلك الكلمة «دائرة أو حلقة» في اللّغة المذكورة[٢].

وقد استعرض الدكتور كاظم الجنابي طائفة كبيرة من المصادر الباحثة عن أصل كلمة الكوفة كما ناقش آراء عددٍ كبير من الكتّاب المحدثين، وتوصل إلى أن الكوفة «بلا شك اسمٌ عربي»[٣].

ويبدو أن الآراء التي أدلى بها الباحثون ممن ذكرنا هنا وممن لم نذكر حول عجمة اسم الكوفة أو عروبته عرضة للمناقشة، لأن اسم الكوفة، كما يظهر مشتق من شكل أرض موضع الكوفة وسماته الطبيعية، لذا يتحقق أصله الناتج عن الوصف الطبيعي لموضعها بغض النظر عمّن أطلقه على تلك البقعة العراقية. ومن الأدلة على ذلك:

أولاً: أن البلاذري في احدى رواياته، يقول: إن بعضهم يسمي الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفةً. ولا شكَ أن أرض الكوفة حتى يومنا هذا تحتفظ بتلك الصفات التي ربما اتصفتْ بها قبل أن ينزلها السريان ومن بعدهم العرب. فاسمها والحالة هذه مشتقٌ من سماتها الطبيعية المعروفة قبل قدوم الجماعتين المذكورتين إليها.

ثانياً: إن كلمة «الكُبّ» بالضم وتشديد الباء تعني الحمض باللّغة العربية[٤]. وتعني كلمة «كـوبا»: كب بالسريانية، شوكة. و«كوبا دكملا» بكاف فارسية، عاقول وهو النبات الذي تأكله الابل[٥].

وإذا كانت كلمة الكوفة محرّفةً عن كلمة «كوبا» السريانية فيظهر أن الاسم السرياني المزعوم مأخوذٌ من نباتٍ ربما كان موجوداً بموضع الكوفة قبل أن يطأه السريان ثم العرب من بعدهم، يضاف إلى ذلك أن ياقوت الحموي عند كلامه عن كوفان التي هي والكوفة

(١) مباحث عراقية، ج ٢ (بغداد، ١٩٥٥)، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٢) ماسينون، لويس، خطط الكوفة ـ ترجمة تقي المصعبي (صيدا، ١٩٣٩) ص ٢٥.
(٣) تخطيط مدينة الكوفة (بغداد، ١٩٦٧)، ص ١٣ ـ ١٤.
(٤) الفيزور آبادي، القاموس المحيط، «مادة كبه»، ج ١، ص ١٢١.
(٥) سركيس، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٥.

wadod.org

عنده شيءٌ واحدٌ كما أسلفنا، يقول: «والكوفان الدغل من القصب والخشب...»[١]. ومن المعلوم أن الحمض الذي تأكله الابل متوفرٌ حتى يومنا هذا بين النجف وكربلاء، وأن الدغل والقصب من النباتات التي تنمو عادةً على حافّات الأنهار ومن بينها موضع الكوفة.

ثالثاً: إن من معاني كلمة «عاقولا» الكلدانية: فتلةٌ، عوجه، لفته، ومن معانيها بالعربية كما هو معلوم، منعطف الوادي أو النهر[٢]. ولذا يكون من المحتمل أن السريان أو العرب بعدهم رأوا ذلك المنعطف حين يمر وادي الفرات بموضع الكوفة، وأطلقوا اسم المنعطف على الموضع الذي بُنيت فيه الكوفة فيكون اسمها والحالة هذه مأخوذٌ من انعطاف الوادي المجاور لها، ولعلّه أقدم تاريخاً من وجود السريان والعرب في الموضع المذكور.

ونستنتج من كل ما سبق أن اسم الكوفة مشتقٌ من النباتات أو الرمال المخلوطة بالحصباء والطين، أو من منعطف الوادي التي أشارت المصادر إلى وجودها قبل قدوم السريان وبعدهم العرب إلى موضع الكوفة.

تمصير الكوفة:

مُصّرتْ الكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أسسها القائد سعد بن أبي وقاص سنة (١٧ هـ ـ ٦٣٨ م). ويبدو أن تأسيسها تمَّ بعد فحصٍ وتدقيقٍ، وبعد تجربة مواقع أخرى من أرض السواد، وعندما أمر الخليفة عمر سعداً «أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا»[٣]، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً[٤] أخذ القائد يبحث عن الوضع المطلوب، فوقع اختياره على الأنبار، ولكنه ما لبث أن تركها لأن الذباب آذى من نزلها من العرب. ثم انتقل سعدٌ من الأنبار إلى موضعٍ آخر فلم يتحقق صلاحه، وحينئذٍ اختار موضع الكوفة واختطَّ مدينته الجديدة فيه.

---

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) سركيس، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٣) القيروان ـ الجماعة من الخيل والقفل ومعظم الكتيبة (الفيروزآبادي، القاموس، مادة (القرن)، ج ٢ ص ٢٥٧). ويبدو أن المقصود الموضع الصالح من الناحية العسكرية.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٧٤.

wadod.org

ويظهر من رواية أخرى للبلاذري: أن الخليفة أكَّد على جودة مناخ الموقع المقترح، فطلب من سعدٍ أن يرتاد للمسلمين «موضعاً عدناً...»[١].

ويبدو أن الخليفة أكَّد على توفر الشروط التالية في المحل المقترح:

أولاً: أن يكون الموضع صالحاً لأن يكون محلاً للاستيطان ودار هجرة للمسلمين.

ثانياً: أن تكون مستلزات الدفاع متوفرة فيه.

ثالثاً: أن يكون مناخه جيداً.

ويظهر أن سعداً التزم بتطبيق مقترحات الخليفة ما وسعه ذلك، وحاول سعدٌ أن يستفيد من أهل الخبرة بهذا الخصوص.

روى المسعودي: أن سعداً استشار نفيلة الغساني أثناء بحثه عن موضع المدينة الجديدة، فقال نفيلة لسعدٍ: «أدلُّك على أرضٍ ارتفعت عن البر وانحدرت عن الغلاة. فدلّه على موضع الكوفة اليوم»[٢].

أما ياقوت فيقول: إن سعداً استشار شخصاً يعرف بابن بقبلة، فقال له: «أدلُّكَ على أرضٍ انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن البقة، قال له: نعم، فدلّه (ابن بقبلة) على موضع الكوفة اليوم[٣].

ويقول ياقوت أيضاً عند كلامه عن اللسان من أرض العراق: «وكان مقام سعدٍ بالقادسية بعد الفتح بشهرين، ثم قدم زهرة بن حوية إلى العراق، واللّسان لسان البر الذي أدلعه في الريف عليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم... قالوا: ولما أراد سعدٌ تمصير الكوفة أشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللّسان، وظهر الكوفة يقال له اللّسان... فما كان يلي الفرات منه فهو الملطاط، وما كان يلي البطن منه فهو النجاف. قال عدي بن زيد أبياتاً جاء فيها ذكر اللّسان، كما فيها إشارة إلى موقع الكوفة منها:

ويـــــح أُمّ دارٍ حللنـــــا بهـــــا بيـــن الثُّـــوَيَّـــةِ والمـــردمـــة[٤]

---

(١) أيضاً، ص ٢٧٤.

(٢) مروج الذهب، ج ٣، (القاهرة، لا.ت)، ص ٢١٢.

(٣) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٤) أيضاً، ج ٧، ص ٣٢٨.

wadod.org

ويروي ياقوت بمعرض كلامه عن الكوفة: «المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق. ويسميها قومٌ خدَّ العذارء...»[١] وروى عن الإمام عليّ (ع) أنه قال: «يا حبذا مقالنا بالكوفة ـ أرض سواءٌ سهلةٌ معروفة ـ تعرفها جمالنا العلوفة»[٢].

أما صلاح موقع الكوفة من الناحية العسكرية، فيبدو أن سعداً أعاره طرفاً من اهتمامه، ويبدو أن شروط الدفاع كانت متوفرة في المدينة الجديدة، لذا سميت كوفة الجند، روى ياقوت بيتاً لأحدهم هذا نصّه:

إن التـــي وضعـــتْ بيتـــاً مهـــاجـــرةً بكـــوفـــةِ الجُنـــد غـــالـــتْ ودَّهـــا غـــولُ

يضافُ إلى ذلك أن سعداً أخذ بنصحِ الخليفة فلم يترك بحراً أو نهراً بين مدينته الجديدة وبين الصحراء.

وكان لحفظ الاتصال بالصحراء أهمية كبيرة من الناحية العسكرية، إذ يستطيع المسلمون عند ظهور ضروراتٍ عسكريةٍ أن ينسحبوا إلى الصحراء على خيولهم وجمالهم ذوات الحركة السريعة بسهولة ويسر. وقد ساعدهم ذلك في مناسبات عديدة خلال حروبهم مع الروم والفرس على النجاح. وقد أشار إلى ذلك فون كريمر الذي قرر أن تمتع الجيوش الإسلامية بسرعة الحركة، وان استخدام العرب الجمل في حروب الفتح كان من العوامل المساعدة على نجاحهم بتلك الحروب، ويمكننا أن نستنتج مما أوردناه عن موقع الكوفة ما يأتي:

أولاً: صلاح الموقع من الناحية العسكرية.

ثانياً: ملائمة المناخ للسكان الجدد الذين لم يألفوا السكنى في المستنقعات وفي الأرض المعروفة بكثرة البقّ.

ثالثاً: خصوبة المنطقة ووفرة محصولاتها ومراعيها.

ويروى أن محمد بن عمير العطار الذي قال: «الكوفة سفلت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحرِّها فهي مريئةٌ مريعةٌ، إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على

---

(١) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٦.

(٢) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٩.

wadod.org

مثل رضراض الكافور، وإذا هبّت الجنوب جائتنا ريح السواد وورده وياسمينه وأترنجه، ماؤنا عذبٌ، وعيشنا خصبٌ[١]». وقال عليّ بن محمد الكوفي يصف الكوفة:

وأنـــوارُهـــا مثـــل بـــرد النبـــيّ رُدّع بـــالمســـكِ والـــزعفـــران[٢]

وقال الطبري: أن سعداً حين نزل الكوفة كتب إلى عمر: «إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات، برياً بحرياً، ينبت الحليّ والنصيّ...»[٣].

تخطيط الكوفة واستيطان المسلمين فيها:

بعد أن قرّ رأي سعدِ بن أبي وقاص على اختيار موضع الكوفة شرع بتخطيط المدينة الجديدة، ويبدو أن المدينة بُنيت في أول الأمر بالقصب وعلى شكل معسكر مؤقت. ذكر الطبري: أن الخليفة عمراً سمح ببناء البصرة والكوفة بالقصب «ثم أن الحريق وقع بالكوفة وبالبصرة» فاستأذن سعدٌ من عمر بالنباء باللّبن فوافق الخليفة بعد أن زوّد قائد جيشه بمقترحات حول تخطيط المدينة وبنائها.

وكان من بين مقترحات الخليفة ما له علاقة بأبعاد طرق المدينة. إذ أنه «أمر بالمناهج ـ الطرق الرئيسية ـ أربعين ذراعاً، وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين عشرين، وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء، وفي القطائع ستين ذراعاً...» وكان أول شيء خُطَّ بالكوفة، وبني حين عزموا على البناء المسجد وقصر الكوفة أو دار الإمارة[٤].

وسنرجيء الحديث عن المسجد والقصر إلى موضع آخر من هذا البحث، المناهج الرئيسة: يقصد بالمناهج الرئيسة، وكانت على رواية الطبري محيطة بالحصن (الميدان) وموزعةً حسب جهاته، كما يأتي:

أولاً: المناهج (١، ٢، ٣، ٤، ٥) في ودعة الصحن (شمالي المسجد).

ثانياً: المناهج (٦، ٧، ٨، ٩) في قبلة الصحن (جنوبي المسجد).

ثالثاً: المناهج (١٠، ١١، ١٢) في شرقي الصحن (شرقي المسجد).

---

(١) الحموي، ياقوت، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٨.

(٢) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، (القاهرة، ١٩٣٨)، ص ١٤٧.

(٤) الطبري، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٨.

wadod.org

رابعاً: المناهج (١٣، ١٤، ١٥) في غربي الصحن (غربي المسجد).

وكان إنزال القبائل وتوزيعها على المناهج مرتباً على الوجه التالي:

أ ـ في شمال المسجد، خصص الطريقان (١، ٢) لسليم وثقيف واحد لكل منهما، وخُصص الطريقان (٣، ٤) لهمدان وبجيلة واحد لكل منهما، أما الطريق الخامس فقُسِّم بين تيم اللاّت وتغلب.

ب ـ في جنوبي المسجد، خُصص الطريق (٦) لبني أسد، والطريق (٧) قُسِّم بين أسد والنخع، والطريق (٨) قُسِّم بين النخع وكندة، والطريق (٩) قُسِّم بين كندة والأزد.

جـ ـ في شرق المسجد. خُصص الطريق (١٠) للأنصار ومزينة، والطريق (١١) خُصص لتميم ومحارب، والطريق (١٢) خصص لأسد وعامر.

د ـ في غربي المسجد، خُصص الطريق (١٣) إلى بجالة وبجلة، والطريق (١٤) خُصص إلى جدبلة وأخلاط، وخُصص الطريق (١٥) إلى جهينة وأخلاط.

ويقول الطبري أيضاً: أن القبائل المذكورة كانت تلي الصحن أما «سائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك»[١].

إن المعلومات المتعلقة بترتيب طرق الكوفة وفي أبعادها مسقاةٌ من الطبري، وقد وردت رواية في كتاب البلدان لليعقوبي بشأن عرض الشوارع ربما تخالف ما ذُكِر. فاليعقوبي يقول: «وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد أن يجعل سكك الكوفة خمسين ذراعاً بالسواء»[٢]. ونميل إلى القول بعدم وجود خلاف بين رواية الطبري السابقة ورواية اليعقوبي، لأن السكك كانت بمثابة الشوارع الحقيقية، وهي غير الطرق التي عناها الطبري.

ويبدو من رواية البلاذري أن المصادفة لعبت دورها في تقسيم موضع الكوفة بين الجماعتين العربيتين الرئيسيتين وهما أهل اليمن ونزار، يقول البلاذري: «وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين، على أن من خرج بسهمه أولاً فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي، وصارت خطط نزار في

(١) أيضاً، ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) اليعقوبي، البلدان (النجف، ١٩٥٧)، ص ٧١.

wadod.org

الجانب الغربي»[١] وكان أهل اليمن أكثر عدداً من عرب الشمال. قال الشعبي: «كنا ـ يعني أهل اليمن ـ اثني عشر ألفاً، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى أنّا أكثرُ أهل الكوفة، وخرج سهمنا بالناحية الشرقية، فلذلك صارت خططنا بحيث هي»[٢].

ويبدو أن الاعتبارات العملية هي التي أملتْ على سعد القرارات التي اتخذها عند تخطيطه للمدينة الجديدة، وأن عامل المصادفة الذي أشرنا إليه قبل قليل عند إيراد رواية البلاذري كان ذا أهمية ضئيلة إن لم تكن معدومة، فإنزال نزار بجانب، وأهل اليمن بجانب آخر، أمرٌ اقتضته الاعتبارات القبلية والاختلافات بين الجماعتين العربيتين الرئيسيتين.

أما تخصيص القسم الشرقي، وهو أفضل من القسم الغربي لقربه من الفرات، لأهل اليمن فيبدو أنه كان نتيجة لكثرة عدد أهل اليمن أو لقوتهم، وربما لحسن اختيارهم لأنهم أكثر تمدّناً وأكثر إلفةً للحياة المدنية من القبائل المنتسبة لعرب الشمال.

ويبدو أن اختيار المواقع ضمن المنطقة التي خُصصت لتخطيط المدينة كان موضع اهتمام ذوي العلاقة، فيروي ياقوت: أن سعد بن أبي وقاص ولّى السائب بن الأقرع، وأبا الهياج الأسدي خطط الكوفة. وقال ابن الأقرع لدهقان الفلوجة: «اختر لي مكاناً من التربة، قال: ما بين الماء إلى دار الإمارة، فاختطّ لثقيف في ذلك الموضع»[٣].

وثقيف كما هو معلوم، كانت قبيلة متمدنة يشتغل معظم أفرادها بالتجارة، واهتمامها باختيار موقع سكناها من الكوفة يجعلنا نرجّح أن أهل اليمن ـ وشأن غالبيتهم في اليمن شأن ثقيف ـ هم الذين اختاروا الموضع الجيّد من الكوفة ـ كما أسلفنا ـ ولم يُخصص لهم ذلك الموضع مصادفة.

عدد سكان الكوفة ومساحتها في حدود الثلاثين عاماً التي تلت تأسيسها:

إن المعلومات التي نوردها بصدد مساحة الكوفة وعدد سكانها في الفترة موضوع البحث عرضة للمناقشة، كما أن التقادير التي اقترحتها لعدد السكان كانت تقديرية، ولذا

(١) فتوح البلدان ٤، ص ٢٧٥.
(٢) أيضاً، ص ٢٧٦.
(٣) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٧.

wadod.org

لا يمكن الجزم بصحتها، وبالرغم من ذلك فإن إيرادها لا يخلو من فائدة:

أولاً: إن الخليفة عمر طلب من القائد سعد أن يختطَّ المسجد الجامع على عدد المقاتلة فخطَّ على أربعين ألف إنسان، فلما قدم زياد بن أبيه زاد فيه عشرين ألف إنسان. وقال الشعبي، ـ كما أسلفنا ـ: إن أهل اليمن إثنا عشر ألف، وأن نزار ثمانية آلاف[١]. وروى البلاذري أنه: «كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شانشهاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبّوا... وأنزلهم سعد بحيث اختاروا... وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم فقيل حمراء ديلم»، ثم يقول البلاذري: أن جماعة من الأساورة بعد أن فتح المسلمون قزوين، أتوا الكوفة فأقاموا بها[٢].

وفي رواية أخرى قال البلاذري: إن يوسف بن عمر، قال: «نظرت في جماعة مقاتلة البصرة أيام زيادٍ فوجدتهم ثمانين ألفاً، ووجدت عيالهم مائة ألف وعشرين ألف مقاتل وعشرين ألف عيل، ووجدت العرب مقاتلة الكوفة ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفاً»[٣].

ويبدو من الروايات السابقة أن عدد مقاتلة الكوفة العرب، في الفترة موضوع البحث، كان ستين ألفاً، وأن عيالهم ثمانون ألفاً، وأن حمراء ديلم أربعة آلاف، ويقدر عدد عيالهم قياساً على عدد عيال العرب بستة آلاف، وعلى فرض أن عدد الأساورة الذين جاءوا من قزوين ونزلوا الكوفة يقدر بألفين.

وإذا علمنا أن عدداً من السكان العرب لا يدخلون في هذا الإحصاء، لأن الديوان خاصٌّ بالمقاتلة وعيالهم، أما غير الصالحين للقتال فلا ينالون عطاءً من الدولة، ولا تُدرج اسماؤهم في الديوان، يضاف إلى ذلك أن عدد السكان النصارى الذين لا يدخلون في عداد المقاتلة يمكن تقديره بعشرة آلاف، نظراً لأن معظم سكان الحيرة التي أُسست الكوفة على أنقاضها كانوا نصارى، ويترتب على ما سبق، يمكن أن يقدر مجموع سكان الكوفة في الفترة موضوع البحث في حدود المائتي ألف نسمة، وإذا أخذنا

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٩٧.
(٢) فتوح البلدان، ص ٢٧٩.
(٣) أيضاً، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

wadod.org

عدد دور الكوفة مقياساً لتقدير سكانها لوجدنا أن الرقم السابق يتضاعف لأن عدد دورها كان، على رواية بشر بن عد الوهاب، ثمانين ألفاً[١] مع الافتراض بأن كل دارٍ كان يسكنها خمسة أشخاص، ونعتقد أن هذا العدد مبالغٌ فيه للأسباب الآتية:

أ ـ يُقصد بالمقاتلة العرب أفراد الجيش الذين أُنيطت بهم الحروب الداخلية والخارجية في المناطق التابعة للكوفة، سواء كان ذلك في حدود العراق الحالية أو في خارجها، وليس من الضروري أن يسكن جميع هؤلاء في العاصمة، وربما سكن الكثير منهم في مدنٍ ومعسكرات قريبة من الكوفة، وأن إدراجهم بديوان مقاتلة الكوفة لا يعني حصراً أنهم سكنوا فيها.

ب ـ من المحتمل أن أسماء وهمية كانت تُسجّل بالديوان لغرض سحب العطاء، لذا يصعب أخذ العدد المسجل بالديوان أساساً لمعرفة سكان المدينة.

جـ ـ إن مشكلات التموين والإسكان خاصة في فترة تأسيس المدينة تجعل القيام بسدِّ الحاجات الضرورية لعددٍ كبير من السكان أمراً بالغ الصعوبة، لذا لا نحتمل وجود العدد المذكور في مدينة الكوفة في الفترة موضوع البحث.

أما مساحة الكوفة فتقدرها الرواية التي أوردناها عن بشر بن عبد الوهاب قبل قليلٍ بستّة عشر ميلاً وثلثي الميل[٢]. ولا نستطيع أن نحدد بالضبط السنة التي جرى فيها التقدير المذكور، ولكننا مع ذلك نعلم أن بشراً هذا كان من موالي بني أمية والحالة هذه معاصرٌ لهم، ومن المعلوم أن الميل يساوي (١٠٦٩) أمتار أو (٣٠٠٠) ذراع بالمقياس القديم[٣].

المسـجد ودارُ الإمـارة:

أولاً ـ المسـجد:

كان المسجد أول بناء خُطط ثم شُيّد في الكوفة، ويبدو أن المسجد أُقيم في موضعٍ مرتفع من المدينة. ويحدد البلاذري موضع المسجد، بقوله:

---

(١) ياقوت الحموي، ج ٧، ص ٢٩٧.

(٢) أيضاً، ج ٧، ص ٢٩٧.

(٣) الذراع الآدمي المعبَّر عنه في كتب الفقه يساوي ٤٧ سنتمتراً، والذراع القديم يساوي ٦١ سنتمتراً.

wadod.org

«ثم وضع سعدٌ مسجدها ودار إمارتها في مقام العالي وما حوله». ثم يبيّن البلاذري: أن مخططي المسجد بدأوا بتعيين جدار القبلة أولاً[١]. وتعيين الجدار المذكور أمرٌ ضروري، لأن تعيين جدار القبلة من شأنه أن يُسهّل تخطيط بقية الجدران، وكان المسجدُ مربّع الشكل يساوي ضلعه رمية سهمٍ ـ حسب رواية البلاذري السابقة ورواية الطبري[٢] ـ.

وفي معرض الكلام عن شكل بناء المسجد يقول الطبري: «فتُرك المسجد في مربعةٍ علوه من كل جوانبه، وبنى ظلّة في مقدمةٍ ليست لها مجنباتٌ ولا مواخير والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا... وكانت ظلته مائتي ذراع، على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية، وأعلَموا على الصحن بخندقٍ لئلا يقتمه أحدٌ ببنيان»[٣].

ويبدو أن موقع المسجد تغيّر بعد فترة قليلة من تخطيطه لأول مرة، وذلك على أثر حصول سرقة ببيت المال الذي كان جزءاً من دار الإمارة الواقعة على مقربة من المسجد، وبعد أن أُخبر الخليفة عمر بحصول السرقة كتب إلى سعد: «أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جانب الدار، واجعل الدار قبلتَه... فنقل المسجد وأراغ بنيانه».

ويذهب الطبري إلى أن سعداً طلب من أحد المعماريّين الفرس أن يتولى بناء دار الإمارة والمسجد، فقال المعمار لسعدٍ: «أنا أبنيه لك وابني لك قصراً فأصلهما ويكون بنياناً واحداً. فخطَّ قصر الكوفة على ما خُط عليه، ثم أنشأه من نقض آجر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة على مساحته اليوم»[٤].

وجاءت كلمة أراغ على صورة افراغ طبقاً لإحدى النسخ التي اعتمدها ناشر طبعة ليدن للطبري.

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٤٨.

(٣) أيضاً: ٣:١٤٨. ويرى الجنابي (مسجد الكوفة ص ٢٢). المواخير، «ج» ماخور وهو بيت الريبة والشك ويظهر ـ على زعمه ـ أن النص مصحَّف والمقصود به مؤخرة المسجد كما يدل على ذلك سياق الكلام. ومواخير ج مؤخره. القاموس المحيط مادة «اخر».

(٤) أيضاً ج ٣، ص ١٥٠.

wadod.org

ونفيد من الروايات السابقة أن المسجد الذي بناه سعدٌ يتصف بما يأتي:

أولاً ـ كان المسجد مربّع الشكل ذا ظلةٍ أو جزء مسقوف لإيواء المصلّين، وليس له مجنباتٌ ولا مؤخرة، وإن قبلته منحرفةٌ قليلاً عن الاتجاه الذي يحدده علم الهيئة القديم.

ثانياً ـ لم يكن المسجد مسوّراً لذلك أعلموا على الصحن بخندقٍ لئلا يقتحمه أحدٌ ببنيان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الطبري روى عن عطاء مولى إسحاق بن طلحة، أنه قال: «كنتُ أجلس في المسجد الأعظم قبل أن يبنيه زياد، وليست له مجنباتٌ ولا مواخير، فأرى منه دير هندٍ وباب الجسر»[١].

ومن الجدير بالذكر أن الموضعين الواردين في النّص السابق يقعان بالقرب من الفرات كما يظهر على الخريطة التي تخيّلها ماسنيون لمدينة الكوفة.

ثالثاً ـ يبدو أن ضعفاً ظاهراً في رواية الطبري السابقة القائلة: بأن المسجد والقصر بنيا من نقضِ آجرٍ كان مستعملاً ببناء الأكاسرة يقع في ضواحي الحيرة، ويعود ذلك الضعف للأسباب الآتية:

أ ـ بُعدُ المسافة بين الكوفة والحيرة، كانت المسافة بين موضع المدينة الجديدة والحيرة تبلغ ثلاثة أميال[٢].

ولا شكَ أن كلفة نقل الأنقاض من مسافة كهذه تكون كبيرة. ب ـ إن كلفة نقض الأجر من بناءٍ قائمٍ، ثم كلفة تنظيفه ليكون صالحاً للاستعمال مجدداً ربما تزيد على كلفة عمل آجرٍ جديدٍ، لا سيما إذا علمنا أن الحطب الذي يُشوى به اللّبن ليصبح آجراً، متوفر في الكوفة حيث أُقيم البناء الجديد.

ج ـ إن الطابوق المنقوض من بناء قديم يتعرّض للكسر في الغالب، ثم يصعب استعمال الجصّ كمادة لاصقة له بعد نقضه. يضاف إلى ذلك أن أجراً بهذه الصفة لا يصلح أن يُستعمل لإقامة بناء ذي أهمية كما هي الحال في بناء المسجد ودار الإمارة في الكوفة.

د ـ إن التنقيبات الأثرية التي أجرتها مديرية الآثار العراقية تؤيد ما ذهبت إليه

---

(١) أيضاً ج ٣، ص ١٥١.

(٢) اليعقوبي، البلدان (النجف، ١٩٥٧)، ص ٦٩.

wadod.org

بخصوص موادّ البناء المستعملة في مسجد الكوفة ودار إمارتها.

قال الدكتور الجنابي: «أثبت البحث الأثري أن مادّة البناء المستعملة هي الآجر والجصّ، وبعد الفحص الدقيق ثبت لدينا أن الآجر المستعمل في بناء الدار جميعه من صنع محلي غير مختلفٍ ولا مهشم ولا منزوع أو منقول من محل آخر وبقياسٍ متناسب... وهذا بخلاف ما زعمه الرواة من أن سعد بن أبي وقاص قد بنى دار الإمارة في الكوفة بآجر انتزعه من بنيان للأكاسرة في الحيرة»[١].

ثانياً: دار الإمـارة:

كانت دار الإمارة التي بناها سعد واقعة على مقربة من المسجد الجامع.. وكانت تلك الدار تضم بين محتوياتها بيت مال الكوفة. قال الطبري عند كلامه عن بناء مسجد الكوفة في عهد سعد: «وبنوا لسعدٍ داراً بحيالة (المسجد) بينهما طريق منقب مائتي ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال وهي قصر الكوفة اليوم، بنى ذلك له روزبه من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة».

ويبدو أن المسجد والدار كانا وسط ميدان حظرت السلطات البناء فيه، ولكنها سمحت للناس أن يتخذوا مواضعهم في الميدان المذكور لغرض البيع والشراء.

ويظهر أن الأوضاع التي وصفنا استمرت طيلة خلافة عمر، قال الطبري أيضاً: فكان الصحن على حالِه زمان عمر كله لا تطمع فيه القبائل، ليس فيه إلاّ المسجد والقصر والأسواق في غير بنيان ولا أعلام، وقال عمر: «الأسواق على سنّةِ المساجد من سبق إلى مقعدٍ فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه»[٢].

واستقر موضع القصر قبلة المسجد وذلك على أثر تغييّر أُجري في ذلك الموضع بعد حصول سرقة في بيت المال، وعندما أُخبر الخليفة بذلك كتب إلى سعد قائلاً: «ان انقلْ المسجد حتى تضعه إلى جنب الدار، واجعل الدار قبلته... فنقل المسجد»[٣].

ويظهر أن سعداً أحكم بناء القصر وحصّنه من الناحية العسكرية، ومنع الناس من

(١) مسجد الكوفة، (بغداد، ١٩٦٦)، ص ٧٩.
(٢) الطبري، ج ٤، ص ١٤٩.
(٣) أيضاً، ج ٣، ص ١٥٠.

wadod.org

الدخول إليه بمحض إرادتهم، وأغضب الناس إجراء الأمير، فرفعوا الأمر للخليفة الذي ما لبث أن أرسل رسولاً يحمل كتاباً إلى سعد، قال فيه: «بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال»[١]، وقد أوضح سعد وجهة نظره لرسول الخليفة، ووصف الأخبار التي وصلت العاصمة بأنها مبالغ فيها.

ونختم الحديث عن دور تأسيس المسجد وقصر الإمارة بما يأتي:

أولاً: إن مواد البناء التي استعملت في بناء دار الإمارة شأنها شأن التي استعملت في بناء المسجد، كانت مستحدثة وليست منقوضةً من أبنيةٍ ايرانيةٍ قديمة، وقد فصّلنا ذلك عند كلامنا عن المسجد.

ثانياً: إن وصف الخليفة لدار الإمارة بأنها قصراً، وإنها حصن، يدلُّ على أن النواحي العسكرية ومقتضيات الأمن كانت موضع الاهتمام عند تخطيط تلك الدار وبنائها.

ثالثاً: إن تحويرات أُدخلت على موضع المسجد وقبلته حتى تتوفر مستلزمات الأمن لبيت مال الدولة والسلامة والراحة لممثلها في الكوفة.

أما مساحة مسجد الكوفة فليس لدينا عنها إلاّ روايةٌ واحدةٌ متأخرةٌ لذا لا نستطيع الجزم فيما إذا كانت تلك المساحة أُخذتْ للمسجد عند تأسيسه أو بعد إعادة بنائه من قِبَل زياد كما سنشير في الصفحات التالية.

قال ياقوت: أن الشعبي، قال: «مسجد الكوفة ستّة أجربة وأقفزة، وقال زاد نفروخ: هو تسعة أجربة...»[٢]. والجريب والقفيز كمقياسين للطول يساويان على التوالي ٣٩١٧ م^{٢} و ٣٩١,٧ م^{٢} [٣].

ومن الجدير بالذكر أن طائفةً من الكتّاب يشكّون في صحة الاتجاه القائم لقبلة مسجد الكوفة، وقد تطرق إلى ذلك السيد البراقي في كتابه تاريخ الكوفة[٤]، ونقل رواية

---

(١) أيضاً، ج ٣، ص ١٥١.

(٢) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٨.

(٣) الدباغ عبد الوهاب، النخيل والتمور في العراق، بغداد، ١٩٥٦، ص ١٢٤.

(٤) طبع الكتاب المذكور في النجف، ١٩٦٠ م، ص ٤٢ ـ ٤٤.

wadod.org

عن المجلسي مفادها، أن محراب مسجد الكوفة منحرف عن يمين نصف النهار نحواً من أربعين درجة، وهو قريب من قبلة أصفهان.

وعلّل المجلسي أمر الأئمة (ع) لشيعتهم بالتياسر عن اتجاه القبلة المتعارف عليه في مسجد الكوفة بأنه ناتج عن أن تحديد اتجاه القبلة لم يجرِ بصورة صحيحة عند بناء عدد من المساجد القديمة في العراق بما فيها مسجد الكوفة، ونميل إلى أن إنحراف القبلة في المسجد ناتجٌ عن التغيّرات التي أجراها سعدٌ في بناء المسجد ليناسب قصر الإمارة كما جاء في رواية الطبري التي أشرنا إليها فيما سبق من البحث، وتؤكد البحوث الأثرية وجود إنحرافٍ في قبلة المسجد قدره سبع عشرة درجة[١].

التغييّرات التي أُدخلت على مسجد الكوفة بعد تأسيسه:

لقد حصلت تغييّرات عديدة في المسجد بعد تأسيسه في عهد سعد بن أبي وقاص، وتناولت تلك التغييّرات مساحة المسجد، وبعض موادّ البناء المستعملة فيه بما في ذلك المواد التي كانت تغطّي صحنه، وما إلى ذلك من تغييّرات. قال البلاذري في معرض كلامه عن المسجد: «ثم أن المغيرة بن شعبة وسّعَه وبناه زياداً فأحكمه... وكان زياد يقول: أنفقت على كل إسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مائة»، ويقول أيضاً: إن المغيرة زاد في مسجد الكوفة وبناه ثم زاد فيه زياد، ثم شرح البلاذري الأسباب التي دعت زياداً إلى تبليط فناء المسجد بالحصى، كما بيّن أن زياداً: «اتخذ في مسجد الكوفة مقصورة ثم جدّدها خالد بن عبد الله القسري»[٢].

ومن أسباب بناء المقصورة خوف الأمير من الاغتيال أثناء الصلاة، أو أنها تجسيد للقوة، أما الطبري فيبيّن ما صنعه زياد حين عزم على بناء المسجد، بقوله: «ولما أراد زياد بنيانه دعا ببنّائين من بنّائي الجاهلية فوصف لهم موضع المسجد وقدره وما يشتهي من طوله في السّماء، وقال: اشتهي من ذلك شيئاً لا أقع على صفته، فقال له بنّاءٌ: قد كان بناءً لكسرى لا يجيء هذا إلاّ بأساطين من جبال أهواز، تُنقر ثم تُثقب ثم تحشى بالرصاص، وبسفافيد الحديد فترفعه ثلاثين ذراعاً في السماء، ثم تسقفه وتجعل له

(١) الجنابي، مسجد الكوفة، ص ٢٩.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

wadod.org

مجنباتٍ ومواخير فيكون أثبت له، فقال (زياد): هذه الصفة التي كانت نفسي تنازعني إليها ولم تعبرها»[١].

ويبدو أن تغييّرات أخرى حصلت في المسجد بعد أن أحكم زياد بناءه، يقول ياقوت: «ولمّا بنى عبيد الله (بن زياد) مسجد الكوفة جمع الناس، وقال: يا أهل الكوفة، قد بنيت لكم مسجداً لم يكن على وجه الأرض مثله، وقد أنفقت على كل إسطوانة سبع عشرة مائة، ولا يهدمه إلاّ باغ أو جاحد، وعلى رواية ثمان عشرة مائة».

وفي رواية أخرى يقول ياقوت: «وبعد أن بناه ابن زياد سقط منه شيء فهدمه الحجّاج، وبناه ثم سقط بعد ذلك الحائط الذي يلي دار المختار، فبناه يوسف بن عمر»[٢].

ويبدو أن التغييّرات التي طرأت على مسجد الكوفة في عهد يوسف بن عمر الذي تولى العراق في سنة ١٢٠ هـ، كانت آخر ما دخل على المسجد من تغييّرٍ في عهد بني أمية، وهو العهد الذي تناولناه في هذا البحث.

يضاف إلى ذلك: أن المعلومات المتوفرة عن التغييّرات التي أحدثها في المسجد ولاة بني أمية بعد زياد بن أبيه، لا تبيّن طبيعة تلك التغييّرات، ونتيجة لذلك لا يستطيع الباحث أن يرسم صورة واضحة للتطورات التي حصلت في مسجد الكوفة خلال العصر الأموي الذي تلى حكم زياد. وبعد أن يستعرض الدكتور الجنابي النصوص الواردة في صدد ما حصل على المسجد من تغييّرات بعد زياد يقول: «وقد لاحظنا من هذه النصوص، إنها لم تعن بالحديث المفصَّل عن المسجد من ناحية تقسيمه وموادّ بنائه وأساطينه إلى غير ذلك»[٣].

الأحوال الاقتصادية في الكوفة:

سنورد فيما يلي من الصفحات معلوماتٍ عامةٍ عن الأحوال الاقتصادية في الكوفة خلال الفترة موضوع البحث.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٥٠.
(٢) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٩.
(٣) مسجد الكوفة، ص ٢٥.

wadod.org

أنشأت مدينة الكوفة في منطقة واقعة في أطراف السواد وعلى مقربة من الفرات. وكان لموقعها هذا أثر مهم في حياتها الاقتصادية، وذلك أنها أصبحت بفضله مركزاً اقتصادياً مهمّاً لمنطقة زراعية، تُنقل محصولاتها من الكوفة وإليها عن طريق الفرات بسهولة، وبأثمان مناسبة.

ويقول اليعقوبي عند كلامه عن الكوفة: «وهي على معظم الفرات، ومنه شرب أهلها، وهي من أطيب البلدان، وأفسحها وأغذاها»[١]. وكان جانب الكوفة الممتد مع الفرات والواقع بينها وبين الحيرة يسمى الملطاط[٢] أو السبخة.

والملطاطُ حسب رواية الطبري: «ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة»، ويبدو أن الملطاط كان منطقة خصبة من السواد، وأن أحد ولاة عثمان أراد أن يحوزه لنفسه وذات مرة تمنى أحد الكوفيّين أن يكون الملطاط لسعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة فلامه من حضر في المجلس من رؤوساء القبائل على ذلك القول، لأن الملطاط جزء من السواد الذي هو في نظرهم لأهل الكوفة جميعاً وليس للأمير وحده[٣].

ويبدو أن عدداً كبيراً من عرصات دور السكن في الكوفة منحتها الدولة للقاطنين الجدد دون مقابل، ولمّا كانت أرض الكوفة مفتوحة عنوة يستطيع الخليفة أو من يمثله أن يمنحها لمن يشاء على تأويل تحقق مصلحة المسلمين في ذلك، قال البلاذري: أن سعداً لما اختطّ الكوفة أقطع الناس المنازل[٤]. ويورد اليعقوبي قائمةً بأسماء من أقطعهم الخليفة ومن أقطعهم سعدُ عرصاتٍ في الكوفة، وكان عددٌ من الصحابة الذين قدموا مع الجيش الفاتح للكوفة من بين من أقطعهم عمر. فاقطع الخليفة عمر جبير بن مطعم مثلاً عرصة فبنى عليها داراً، واستقطع سعدٌ لنفسه الدار التي عرفت فيما بعد بدار عمر بن سعد[٥].

---

(١) البلدان، ص ٦٩.
(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٧٧.
(٣) التاريخ ٣: ٣٦١.
(٤) فتوح البلدان، ص ٢٧٤.
(٥) البلدان، ص ٧٠ ـ ٧١.

wadod.org

وكان من بين الصحافة الذين أُقطعوا دوراً بالكوفة الزبير بن العوام وطلحة، روى المسعودي: أن الزبير بنى دوراً بمصر والكوفة، وأن طلحة ابتنى داره بالكوفة المعروفة بالكناس بدار الطلحتين، وكانت غلّته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك[١]، كما أقطع سعدٌ أبا موسى الاشعري نصف الآري، وكان فضاءً عند المسجد، وأقطع حذيفة بن اليمان مع جماعة من عبس نصيف الآري[٢]، ويبدو من النص السابق أن طلحة كان من بين الملاّكين الكبار في العراق. ومع هذا لا نستطيع أن نعلم مقدار أملاكه في الكوفة خاصة.

ويبدو أن الخلفاء الأمويين دأبوا على إقطاع العرصات للمقرّبين من رجال الدولة، ومن القطائع التي أقطعوها والتي ورد اسمها بالمصادر منطقة تُعرف بدار الروميّين التي كانت مزبلةً لأهل الكوفة، وأقطعها يزيد بن عبد الملك لعنبسة بن سعيد بن العاص، فنقل ترابها بمائة وخمسين ألف درهم[٣].

أما الأسواق، فيظهر أنها كانت موضع عناية السلطات منذ تخطيط المدينة، وسبق أن أشرنا عند كلامنا عن تخطيط المسجد ودار الإمارة، إلى أن عمر أباح الجلوس للباعة في المواضع المعدَّة للبيع والشراء حسب السبق على سنّة الجلوس في المساجد. ويبدو أن الاجراء المذكور كان مؤقتاً، إذ ما لبثت السلطات أن أقامت سوقاً معيناً، قال اليعقوبي: «وجعلت السوق من القصر والمسجد إلى دار الوليد إلى القلائين إلى دور ثقيف وأشجع، وعليها ظلال يوارى إلى أيام خالد بن عبد الله، فأنه بنى الأسواق وجعل لإهل كل بياعةٍ داراً وطاقاً، وجعل غلالها للجند...»[٤].

ونفيد من النص السابق أن خالد بن عبد الله القسري، وهو معروف بمقدرته في الاقتصاد، بجمعه أهل كل بياعةٍ في مكان واحد، راعى النظام الذي عُرف فيما بعد بنظام الأصناف، وهو جمع أهل كل حرفة بمنطقة وإيجاد روابط مهنية فيما بينهم، يُضاف إلى ما سبق أن الأسواق، ـ كما يبدو من النص ـ كانت غلاّتها أو إيجارها تعود للقطّاع العام.

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٢) البلدان، ص ٧٠.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٠.
(٤) البلدان، ص ٧١.

wadod.org

ويبدو أن عدداً من الناس ملكوا ثروات كبيرة في الكوفة، وكان الزبير وطلحة كما أشرنا سابقاً من بين هؤلاء، وقد ورد بالمصادر أن عدداً من العرصات أو الفسح الكبيرة التي عرفت بالصحارى كانت تنسب إلى أشخاص معينين، ومن المحتمل أن هؤلاء كانوا في الأصل يملكون تلك القطع، وكان من بين تلك الصحارى صحراء أثير نُسبت إلى رجل من بني أسد يقال له أثير.

ومن الجدير بالذكر أن الاسم المذكور جاء مصحفاً بخريطة ماسينون النسخة العربية، فورد باسم (عثير) بدلاً من (أثير). وكان من بين تلك الصحارى صحراء بني قرار، ودار الروميّن التي كانت مزبلة قبل منحها إلى عنبسة بن سعيد كما أسلفنا. وكذلك صحراء شبث بن ربعي، وصحراء البردخت الشاعر الضبي، وكان لبني بجلة منطقة تعرف بشهارسوح وتعني المنطقة ذات الأربع جهات، وكان لعرزم جبّانة يُضرب فيها اللّبن ويبيعه للناس.

ووجد بين الكوفيين من يملك قصوراً وقرى، وكان حسان بن مالك يملك قصراً بالكوفة، وكان صلاية بن مالك يملك قرية أبي صلاية على الفرات[1].

قنطـرة الكـوفة:

إن وجود جسر على الفرات بجوار الكوفة أمرٌ له أهميّته في الحياة الاقتصادية لسكان تلك المدينة. فالجسر يربط مدينة الكوفة براً بأرض السواد الواقعة عبر الفرات، كما أن وجوده يسهّل تصدير البضائع من الكوفة إلى الأقطار الأخرى وتوريد تلك البضائع منها للكوفة.

يضاف إلى ذلك أن وقوع الكوفة على طريق الحجّ البري يجعل القوافل القاصدة للحجاز والعائدة منه تعبر الفرات عن طريق الجسر المذكور، ويحدّثنا البلاذري عن قنطرة الكوفة، فيقول في إحدى رواياته أن عمر بن هبيرة الفزاري هو الذي أحدث قنطرة الكوفة، وكان عمر بن هبيرة هذا قد تولى الكوفة سنة ١٠٣ هـ، ويورد البلاذري رواية أخرى عن القنطرة المذكورة مفادها: أن أول من بنى القنطرة رجلٌ من العُبّاد في الجاهلية، ثم سقطت فاتخذ من موضعها جسراً، ثم بناها في الإسلام زياد ابن أبيه، ثم

(١) البلاذري، فتوح البلدان ص ٢١٠ وما بعدها.

wadod.org

ابن هبيرة، ثم خالد بن عبد الله، ثم يزيد بن عمر، ثم أُصلحت بعد بني أمية مرات[١].

ويبدو أن الرواية الأخيرة أقرب إلى التدقيق للسببين التاليين:

أولاً: أن الحيرة كانت قائمة مقام الكوفة بكونها أهم مدينة في المنطقة، ويعسرُ أن تزدهر الحيرة ما لم يربطها بمنطقة السواد جسرٌ على الفرات.

ثانياً: ليس من السهل أن يبقى الفرات دون قنطرة عند الكوفة طيلة ما يربو على الثمانين عاماً التي مرت على تمصيرها قبل أن يليها الفزاري.

يضاف إلى ذلك: أن الكوفة كانت طيلة المدّة المذكورة عاصمة من عواصم العراق المهمّة، وكانت الأقسام الخصبة المجاورة لها من السواد تُدار منها، فلا يمكن والحالة هذه أن يفصل العاصمة نهرٌ عن البلاد التي تحكمها دون وجود جسر يسهّل العبور منها والعودة إليها.

ثالثاً: ورد ذكر لوجود جسرٍ على الفرات عند الكوفة قبل التاريخ الذي حدده البلاذري بروايته بنحو ٣٠ عاماً[٢].

التجارة والنقود والصيرفة في الكوفة:

حلّت الكوفة بعد تمصيرها محلّ مدينة الحيرة التي كانت من المدن التجارية الواقعة على طرق القوافل القادمة من البادية المجاورة لها من الجنوب، ولذا أصبحت محلاً لتبادل البضائع بين أصحاب البادية وسكان السواد الذين كانوا تحت الحكم الإيراني[٣]. وربما أصبحت الكوفة أهمّ مركز للتموين في المنطقة بعد أن كانت الأنبار الواقعة بالقرب منها تقوم بتلك المهمّة في العهد الساساني.

قال البلاذري: «وإنما سميت الأنبار لأن اهراء العجم كانت بها، وكان أصحاب النعمان وصنائعه يعطون أرزاقهم منها[٤]. وبعد أن أصبحت الكوفة عاصمة القسم الشرقي من العراق ومنها تموّن الجيوش الشرقية من البلاد الإسلامية، كما يدلُّ على ذلك تسميتها

(١) فتوح البلدان، ص ٢٨٥.
(٢) الطبري، ج ٥، ص ٤٢.
(٣) ماسنيون، المصدر السابق، ص ٦.
(٤) فتوح البلدان، ص ٢٤٧.

wadod.org

بكوفة الجند ـ كما أسلفنا ـ وتأسيس دار الرزق[١] فيها، ترتب على ذلك أن تنشط فعالياتها التجارية والمالية.

ويبدو أن الكوفة في عهد الحجّاج كانت من المناطق التي تُجبى عندها الرسوم الكمركية على البضائع المنقولة في السفن، ذكر ابن سعد: أن الحجّاج أرسل على شقيق بن سلمة الأسدي المعروف بأبي وائل وكان شيخاً مسنّاً. . وقال له: «إنّا نريد أن نستعملك على بعض عملنا قال (أبو وائل): قلت على أيّ عمل الأمير. قال السلسلة. . . قال: قلت ان السلسلة لا يصلحها إلاّ رجالٌ يقومون عليها ويعملون عليها، فان تستعن بي تستعن بشيخ أخرق ضعيف يخاف عمال السوء[٢]. ويقصد بالسلسلة هنا السلاسل التي يُربط بها طرفي النهر لتمنع السفن من العبور حتى تؤدي ما يترتب على البضائع التي تحملها من الرسوم الكمركية وهو ما يعرف بالمآصر.

ويبدو أن وحدة النقود الشائعة في منطقة الكوفة خلال فترة تمصيرها كانت الدرهم، وكانت أوزانه مختلفة فبعض الدراهم كانت تكوّن من خمس وحدات وزنٍ وبعضها من سبع وحدات وزن، قال البلاذري: إن خالداً حين فتح الحيرة وجد أن أهلها «كانوا ستة آلاف رجلٍ، فألزم كلَّ رجلٍ منهم أربعة عشرة درهماً وزن خمسة، فبلغ ذلك أربع وثمانين ألفاً وزن خمسة تكون ستين وزن سبعة[٣]. وكان الدرهم كوحدة للنقد هو الشائع في العراق قبل الفتح الإسلامي، وبقي كذلك في العهد الأموي[٤].

ويبدو أن الدينار كوحدة للعملة كان معروفاً في العراق قبل الفتح الإسلامي إذ وجد ما يُعرف بالدينار الكسروي[٥]. كما استعمله المسلمون بمثابة وحدة للنقد بجانب الدرهم، خاصة بعد أن ضرب عبد الملك بن مروان الدراهم والدنانير كما هو معروف.

وقد وردت إشارات إلى ضرب نقود من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين، ولكنها جاءت فيما يتعلق بمكان ضربها، مرة مقرونة بالعراق، وأخرى بالكوفة، وثالثة دون

(١) الطبري ٢: ٦٤٦، وماسنيون، المصدر السابق، ص ٢٢.
(٢) الطبقات، ج ٦ (ليدن، ١٣٢٥) ص ٦٦.
(٣) فتوح البلدان، ص ٢٤٥.
(٤) الحسيني، محمد باقر، تطور النقود العربية، ص ٦١، الاسلامية (بغداد: ١٩٦٩).
(٥) المقريزي، النقود الإسلامية (النجف، ١٩٧١) ص ٤٦.

wadod.org

تخصيص، فالدراهم ضُربت على الطراز الساساني من قبل عمر وعثمان وعلي[١]. ولم يخص مكان ضرب تلك النقود، على ما أعلم، سوى درهمٍ يحمل كلمة (ولي الله) ضربه والٍ لعليّ (ع) في الري سنة ٣٧ هـ[٢].

ويحدثنا الدكتور الحسيني عن ضرب النقود في الفترة الأموية، فمصعب بن الزبير ضرب الدراهم على الطراز الساساني في العراق، وفي زمن الحجاج ضرب دراهم جديدة بأمر عبد الملك، وفي سنة ٧٩ هـ، تم تعريب الدراهم.

ووصلتنا نماذج من الدراهم المعربة من ضرب الكوفة، وتولى بعد الحجاج إدارة ضرب الدراهم الفضية إضافة إلى غيرها من النقود عمر بن هبيرة والي العراق ليزيد الثاني (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) وخالد بن عبد الله القسري والي هشام بن عبد الملك (١٠٦ ـ ١٢٠ هـ) ويوسف بن عمر والي الوليد بن يزيد (١٢٠ ـ ١٢٦ هـ). وكانت هذه الدراهم تعرف بأسمائهم، فيقال الهبيرية والخالدية واليوسفية، وهي أجود نقود بني أمية.

وضرب الخارجي الضحاك بن قيس الشيباني بالكوفة سنة ١٢٨ هـ، نقوداً فضية[٣] ويشير البراقي إلى وجود دار لضرب النقود الإسلامية في الكوفة خلال الفترة موضوع البحث[٤].

ولمّا كانت الكوفة في الفترة التي تناولها بحثنا من أهم مدن العراق، وأنها تحتوي على دارٍ لضرب النقود كما أشار النقشبندي وقبله البراقي، نرجّح أن معظم الدراهم الوارد ذكرها في أعلاه ضربت فيها[٥]. وقد وردت إشارة في البلاذري إلى وجود حوانيت للصيارفة في الكوفة[٦].

ونستنتج من كل ما سبق أن الكوفة في الفترة موضوع البحث كانت ذات مركز تجاري ومالي مهيمن لا في العراق وحسب بل في الامبراطورية الاسلامية عامةً.

(١) النقشبندي، ناصر الدينار الأموي والعباسي، ج ١ (بغداد، ١٩٥٣) ص ١٨.
(٢) الحسني، ص ٥١.
(٣) أيضاً، ص ٤٨، ٥٠، ٦٤.
(٤) تاريخ الكوفة، ص ٢٥٧.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٢١.
(٦) فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

wadod.org

بين أهل الكوفة ومشاهير حكّامهم:

ينحصر هدفنا فيما يلي من البحث بإيراد طائفة من المعلومات ذات الصلة بتصرف أهل الكوفة تجاه من حكموا بلادهم، كما نورد ما لها صلة بتصرف أولئك الحاكمين تجاه رعاياهم من الكوفيين، وذلك خلال الفترة التي تناولها بحثنا.

كان سعد بن أبي وقاص ـ كما أسلفنا ـ من مشاهير ولاة الكوفة في عهد عمر بن الخطاب، وكان سعد من الولاة القديرين، قال البلاذري: أن عمر سأل عمرو بن معدي كرب عن سعدٍ وعن رضا الناس عنه؟ فقال عمرو للخليفة: «تركته يجمع لهم جمع الذرة، ويشفق عليهم شفقة الأم البرة، إعرابيٌ في غرته، نبطي في جبايته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية، وينفذ بالسوية»[١]. كما أن نجاح سعدٍ في تمصير الكوفة يدلّ على جدارته، ويبدو أن معاملته لأهل الكوفة كانت جيدة، وسبق أن بيّنا أنه أقطع الناس عرصات لبناء دور عليها، وعندما أرسل الخليفة لجنة للتحقيق في شكوى طائفة من أهل الكوفة من تصرفات سعدٍ، قدِم أعضاؤها للكوفة وجعلوا: «لا يأتون مسجداً من مساجدها إلاّ قالوا خيراً، وأثنوا معروفاً، حتى أتوا مسجداً من مساجد بني عبس، فقال رجلٌ منهم: أما إذا سألتمونا عنه، فأنه كان لا يُقسم بالسوية، ولا يعدلُ في القضية»[٢].

ومن التهم التي وجهها جماعة من الكوفيّن لسعد، «أنه لا يُحسن الصلاة»[٣]، وسبق أن بيّنا أن بعضهم اتهمه بالتكبّر وأنه بنى قصراً وصفة الخليفة بقصر الخبال، وأرسل من يحرق بابه، ويظهر أن الخليفة ما لبث أن أصغى لوشاية الكوفيّن بسعدٍ فعزله، ويبدو أن سعداً نفسه كان غير مرتاح لتصرف أهل الكوفة تجاهه، فقال ذات مرّةٍ لهم: «اللّهم لا ترضي عنهم أميراً ولا ترُضهم بأمير»[٤].

كما يبدو أن معظم التهم التي وجهت إليه كانت مهلهلة خاصة تلك التي تصفه بأنه لا يُحسن الصلاة، ثم أن إتخاذ القصر ومنع الناس من دخوله عندما يرغبون كانا من

(١) البلاذري، المصدر السابق، ص ٢٧٨.
(٢) أيضاً، ص ٢٧٧.
(٣) أيضاً، ص ٢٧٧.
(٤) أيضاً، ص ٢٧٨.

wadod.org

مقتضيات حفظ هيبة السلطة وترسيخ النظام.

وبعد سعدٍ ولّى عمر عمار بن ياسر على الكوفة، فاجتهد في حفظ النظام ولكن أهلها شغبوا عليه: «وقالوا ضعيفاً لا علم له بالسياسة فعزله» الخليفة ثم أظهر تذمره من تصرف أهل الكوفة مع ولاتهم[١]، وقد ولي المغيرة بن شعبة الكوفة في عهد عمر ثم في عهد معاوية ولكنه كان متهماً في خُلقِه[٢]، وغير مبتكرٍ في سياسته[٣]، وقد تولّى الحكم في الكوفة في عهد عثمان ولاةٌ منهم: الوليد بن عقبة أخ عثمان من أمه، وسعيد بن العاص.

أما الوليد، فيبدو أنه كان غير مؤهل للحكم وقد تعجّب سلفه سعد بن أبي وقاص من إسناد ولاية الكوفة للوليد، ولكن الوليد بدد عجبه حين قال قاصداً عثمان وبني أمية، أن «القوم ملكوا فاستأثروا». وقال الناس في الكوفة: «بئسما ابتدلنا به عثمان، عزل أبا اسحاق الهيّن الليّن الجسر صاحب رسول الله (ص) وولّى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن»[٤]. ويُستدل من هذا القول إن حكم أهل الكوفة على سعدٍ ـ والذي أشرنا إليه قبل قليل ـ كان غير عادل، وعندما تولّى سعيد بن العاص ولاية الكوفة أثار قضية منطقة الملطاط التي أثارت جماعة من أهل الكوفة كما أسلفنا، كما أنه أثار مشكلات لعثمان في الكوفة ذات أهمية بالغة، فقال سعيد يوماً: «إنما السواد بستان قريش» فقال مالك الاشتر الزعيم الكوفي المعروف: «أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك والله لو رامه أحد لقُرِع قرعاً»[٥].

ويُستدلّ من نكران أهل الكوفة لادعاء أرستقراطية قريشٍ بالاستحواذ على خيرات البلاد دون بقية القبائل العربية، على حيويتهم وعمق تفكيرهم، ونشأ من شدّة اهتمامهم بالقضايا العامة، بما فيها قضية ملكية السواد، أنهم كانوا في طليعة المسلمين الذين أطاحوا بحكم عثمان، وبعد أن آل الحكم في الكوفة للإمام عليّ (ع) لم تمنح غالبية

(١) أيضاً، ص ٢٧٨.
(٢) أيضاً، ص ٢٧٨.
(٣) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها ـ ترجمة عبد الهادي أبو ريده (القاهرة، ١٩٥٨)، ص ١١٠.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢ (القدس، ١٩٣٦)، ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٥) البلاذري، أنساب، ج ٢، ص ٤٠.

wadod.org

أهلها ولاءها التام له، ولم يستجب لندائه من أهلها حين انتدبهم لقتال الثائرين على حكمه في البصرة إلاّ شطرٌ صغيرٌ من سكانها، وقد انصاع الكثيرون منهم لنداء أبي موسى الأشعري الذي دعاهم للقعود عن نصرة الخليفة الجديد.

قال المسعودي: إن علياً كتب إلى أبي موسى الأشعري، «ليستنفر الناس، فثبّطهم أبو موسى، وقال: إنما هي فتنة». ويبدو أن ما قاله أبو موسى أثّر في أهل الكوفة إذ لم يواف الخليفة منهم بذي قار بعد أن تعاقبت رسله إليهم إلاّ عددٌ يقع في حدود السبعة آلاف مقاتل[١] وإذا صحّ ما قلناه سابقاً وهو أن عدد مقاتلة الكوفة حينذاك يقدر بثمانين ألفاً نرى ضآلة العدد الذي التحق بالإمام (ع) عند محاربته لأهل البصرة، ولعلّ الخطبة التي سنوردها بعد قليل تعكس وجهة نظر الإمام عليّ (ع) حول سلوك غالبية أهل الكوفة نحوه، رغم أنه اتخذ من بلدهم عاصمةً له، وأنه اعتمد عليهم في محاربة خصومه. قال الإمام مخاطباً أهل الكوفة:

«أيّها الفرقة التي إذا أُمرتُ لم تُطع، وإذا دعوتُ لم تُجب، إن أُمهلتهم خضتم، وان حوربتم خُرتم، وإن اجتمع الناسُ على إمامٍ طعنتم، وإن أُجبتم إلى مشاقةٍ نكصتم، لا أباً لغيركم، ما تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم؟ الموت أو الذلُ لكم، فوالله لئن جاء يومي ـ وليأتيني ليفرقنَّ بيني وبينكم، وأنا لصحبتكم قالٍ، وبكم غير كثير، لله أنتم، أما دينٌ يجمعكم؟ ولا حميّة تشحذكم؟ أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونةٍ ولا عطاءٍ، وأنا أدعوكم ـ وأنتم تريكة الاسلام وبقيّة الناس ـ إلى المعونة وطائفة من العطاء فتفرّقون عنّي، وتختلفون عليَّ. انه لا يخرج إليكم من أمري رضىً فترضونه، ولا سُخط فتجتمعون عليه، وأن أحبَّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت، قد دارستُكم الكتاب، وفاتحتكم الحجاج... لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم يستيقظ، وأقرب بقومٍ من الجهل بالله قائدهم معاوية، ومؤدِّبُهم ابنُ النابغة»[٢].

ويبدو من هذه الخطبة وأمثالها كثير في كلام الإمام وخطبه[٣]، إن غالبية أهل

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٢) نهج البلاغة، ج ١ (القاهرة، لا.ت)، ص ٣٣٦.

(٣) أيضاً، ج ١ ص ٦٥، ٦٧، وقد ورد في الخطبة التي قال فيها: «الا وأني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً واعلاناً، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا =

wadod.org

الكوفة كانوا لإمامهم غير مطيعين، ولا لأمره منفذين، وأن الإمام لم يترك وسيلة، بما في ذلك الاحتجاج بالكتاب والسنّة وتوفير العطاء، دون أن يستعملها لكسب تأييدهم التام ولكنه لم يفلح، وبلغ السأم به من مشاكستهم إيّاه وتقاعسهم عن نصرته أنه فضّل الموت على العمل معهم.

ولو سأل سائلٌ عن الأسباب التي أدّت إلى تقاعس أهل الكوفة عن نصرة الامام عليّ (ع)، وللإجابة على السؤال السابق نقول: يمكن تلخيص تلك الأسباب بما يأتي:

أولاً: إن الغالبية العظمى من أهل الكوفة في ذلك الحين لم تكن تعتقد بإمامة عليّ، ورضخت أكثريتهم لحكمه بصفته خليفة للمسلمين، ويترتب على ذلك أن أهل الكوفة رغم اعتماد الإمام عليّ عليهم في محاربة الثائرين عليه لم يكونوا من الشيعة، روي أن الامام الباقر قدّر عدد الشيعة في العراق خلال خلافة الإمام عليّ بحدود الخمسين رجلاً، قال الباقر (ع): «كان عليُ بن أبي طالب (ع) عندكم بالعراق يقاتل عدوّه ومعه أصحابه، وما كان فيهم خمسون رجلاً يعرفونه حقّ معرفته»[١].

ثانياً: كان أسلوب الامام عليّ (ع) في العمل السياسي أقرب إلى المثاليات ومستلزمات التقوى منه إلى اعتماد الاعتبارات العملية، تلك الاعتبارات التي تعدُّ مراعاتها طبقاً لكثير من وجهات النظر من مقومات السياسة الناجحة، سواء كان ذلك في الكوفة أو في غيرها، وسواء كان ذلك في عصر الامام عليّ أو في أي عصرٍ من العصور، ويبدو أن الإمام فضّل مقتضيات التقوى والأخلاق على النجاح بالسياسة، . كما يبدو أنه (ع) حسبما يظهر من خطبته التي سنوردها بعد قليل، كان عارفاً بمقتضيات السياسة ولكنه تجنّبها قاصداً للاعتبارات التي أشرنا إليها في أعلاه، قال الإمام عليّ (ع):

«والله ما معاويةُ بأدهى منّي ولكنه يغدرُ ويفجرُ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كلُّ غدرةٍ فجرةٌ، وكلُ فجرةٍ كفرةٌ، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة»[٢]. وهناك أمثلة على مثاليات

= ذلّوا... الخ....».

(١) الكشي، محمد بن عمر، الرجال (النجف، لا.ت) ص ١٢.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، ص ٤١٥.

wadod.org

الامام عليّ بالسياسة، منها أنه كان يشك بإخلاص الأشعث بن قيس وبأمانته، فكتب له مرّةً يقول: «وان عملك ليس لك بطعمةٍ ولكنه في عنقك أمانةٌ...»[١]. ووصفه مرة أخرى بأنه: «حائك ابن حائك، منافق ابن كافر»[٢]، وبالرغم من ذلك ترك الامام عليّ الأشعث دون عقاب صارم على أمل أن يعود للحق، ولكن الأشعث لم يرتدع، وبقي عنصراً ضارّاً في جيش الامام وكان من بين الذين عملوا على إيقاف القتال في صفين بعد أن كاد النصر يلوح لأهل الكوفة وخليفتهم علي (ع)[٣].

ثالثاً: إن سياسة الإمام عليّ (ع) في شؤون المال بما في ذلك قسمته للمال العام بالسويّة بين المسلمين لم تلق رواجاً، كما يبدو، بين أوساط النبلاء بخاصة وعامة العرب بعامة، روى اليعقوبي: ان الإمام عليّاً بعد أن انتصر في حرب الجمل: «أعطى الناس بالسويّة، لم يفضِّل أحداً على أحد، وأعطى الموالي كما أعطى الصليبة، وقيل له في ذلك فقال: قرأت ما بين الدفتين فلم أجد لولد اسماعيل على ولد إسحاق فضلٌ...»[٤]. ويبدو مما سبق أن جماعات من جيش عليّ بما فيهم أهل الكوفة احفظها تقسيم عليٍّ للمال بالسويّة، ونصحت الخليفة بالعدول عن ذلك ولكنه رفض.

وبعد أن آلت الخلافة إلى معاوية أوكل أمر الكوفة إلى عددٍ من الولاة كان من أشهرهم زياد بن أبيه، وكان زياد من الولاة الأكفاء، وسبق أن بيّنا جهوده في إحكام بناء مسجد الكوفة وتبليط أرضه بالحصى، يضاف إلى ذلك أنه قسّم: «جند الشرطة في الكوفة أربعة أقسام، وفي كل قسمٍ منها تتمثل القبائل المختلفة، من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة، بل رئيس تعيّنه الحكومة»[٥]، وأرسل زيادٌ زهاء خمسين ألفاً بعيالاتم من سكان البصرة والكوفة إلى خراسان وأسكنهم هناك[٦]. ويرى فلهاوزن أن الهدف من الإجراء السابق تخفيف حدّة التوتر السياسي في

(١) أيضاً، ج ٢، ص ٦.
(٢) أيضاً، ج ١، ص ٥٦.
(٣) فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (القاهرة ١٩٥٨) ص ٣ وما بعدها.
(٤) التاريخ، ج ٢ (النجف، ١٣٥٨) ص ١٦٠.
(٥) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ص ١٢٠.
(٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٠٠.

wadod.org

العراق[١]، وحاول زياد أن يكسر جماح المعارضة في الكوفة، وكانت تلك المعارضة تعمل بالتدريج على تنظيم صفوفها، وتجعل معارضتها تقوم على المبادىء والقيم، وتمثلت المعارضة في تلك الفترة بشيعة عليّ بالكوفة، وبعد مقتل عليّ أحكمت قبضة الأمويين من الناحية الإدارية والمالية على أهل الكوفة، وحينئذٍ أخذت قطاعات كبيرة من أهل الكوفة تشعر بالندم على خذلان عليّ (ع)، وأصبح الامام عليّ في نظرهم أنه الإمام الحق، وانه وآله هم رمز استقلال بلادهم المفقود.

ولجأ زياد خلال نزاعه مع المعارضة إلى إيقاع الفرقة[٢] بين أهل الكوفة، وبذلك تمكّن من كسر شوكة المعارضة، وتوج عمله هذا بإقناع الخليفة معاوية بضرورة القضاء على حجر بن عدي زعيم تلك المعارضة حينذاك، ومع ذلك فإن لمقتل حجر نتائج إيجابية في حركة التشيّع لأنه ساعد على تكتل الشيعة من جهة، وأثار السّخط على الأمويين بين أوساط كبيرة من المسلمين من جهة أخرى.

وتولّى الكوفة بعد زيادٍ خلال خلافة معاوية عددٌ من الولاة كان من بينهم عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية، وتولّى عبد الرحمن الكوفة سنة ٥٨ هـ، وفي عهده عاد الخوارج إلى الظهور بزعامة حيان بن ظبيان السلمي الذي وصف الأمويين بأنهم «ظلمة» وطلب من أصحابه جهادهم[٣].

ولم تكن هذه أول حركة للخوارج بالكوفة وسوادها بل انهم خرجوا مرات عديدة، وكان ولاة الأمويين يستعينون أحياناً عليهم بالشيعة[٤] من أهل الكوفة، مستغلين الخلاف العقيدي بين الفريقين، وكان عبد الرحمن هذا سيء السيرة، قال الطبري: «استعمل معاوية ابن أم الحكم على الكوفة فأساء السيرة فطردوه، فلحق بمعاوية فقال له أولّيك خيراً منها مصر»[٥]، وهناك رواية أخرى حول نهاية حكم ابن أم الحكم في الكوفة، قال ابن الخشاب: «لما اشتد بلاء عبد الرحمن بن أم الحكم على أهل الكوفة، قال عبد

(١) الدولة العربية، ص ١٢٠.
(٢) الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ١٩٤.
(٣) أيضاً، ج ٤، ص ٢٢٩.
(٤) أيضاً، ج ٤، ص ١٤٤، ١٤٨.
(٥) أيضاً، ج ٤، ص ٢٣١.

wadod.org

عن الحسين بن علي: «وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه»[١].

ولعل قائل يقول: لماذا كان موقف أهل الكوفة من الحسين ومن زعماء الشيعة من قبله بما فيهم عليّ (ع) لا يتصف بالجدية والإخلاص؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول:

أولاً: أسست الكوفة في بيئة ذات مدنية عريقة، فهي وريثة لبابل وللحيرة والمدائن، وسكان بيئات كهذه يوجهون تصرفاتهم حسب مصالحهم الحقيقية، ولا يتركون لعواطفهم في هذا المجال إلاّ دوراً ثانوياً، فلذا كان الكوفيون راغبين في الاستفادة من التشيع أثناء مقاومتهم للحكم الأموي، ولكنهم يقفون عند الحدود التي تصبح عندها مصالحهم الحقيقية مهددة بسبب الإخلاص لذلك المبدأ، يضاف إلى ذلك أن قطاعات كبيرة من سكان الكوفة الجدد، خاصةً من كان منهم من أصلٍ يماني نقلوا صفاتهم المدنية إلى وطنهم الجديد، ويبدو أن غالبية تلك الجماعات كانت تسير بهدي مصالحها الدنيوية ولا تعير مقتضيات التقوى كبير اهتمامها، لذا حاولوا أن يستفيدوا من النزاع بين البيتين العلوي والأموي لحلّ مشكلاتهم الاقتصادية بخاصة، بما في ذلك توزيع الغنائم ودفع الضرائب، دون أن يكونوا مستعدين للتعرض لأضرار حقيقيةٍ من جراء انضمامهم للعلويين المعارضين للحكم الأموي.

ثانياً: كان العلويون الذين وقفوا ضحايا بريئة نتيجة لاستجابتهم لنداء الكوفيين وتورطهم في الحروب اعتماداً على معونتهم الموهومة، مثاليّين في سياستهم في الغالب ولم يوفقوا، كما يظهر لإدراك نوايا الكوفيين الكامنة وراء الظواهر، وأنساقوا وراء الأوهام، وما لبثوا أن وجدوا أنفسهم حين جدّ الجدّ وحيدين يُصلون بنار المعركة، بينما بقي الكوفيون يتفرجون عليهم.

ثالثاً: كان خصوم العلويين في الفترة التي تناولها بحثنا، أكثر تفهماً لنفوس الكوفيين، وقد أدركوا طرفاً من خفايا نفوسهم، وعرفوا كيف يكبحون جماحهم ويفرقونهم عن ممثلي الحزب العلوي ثم يقضونَ على أولئك الممثلين بسهولةٍ.

وإليك نماذج من أساليب الحُكّام الأمويّن في تعاملهم مع الكوفيّن:

أ ـ اشتدّت شوكة معارضة الكوفيّن للمغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة، فلم

---

(١) أيضاً، ج ٤، ص ٢٣٩.

wadod.org

الله بن همّام السلولي شعراً وكتبه في رقاعٍ وطرحها في مسجد الكوفة:

ألا أبلـــغ معـــاويـــةَ بـــن صخـــرٍ فقـــد خـــربَ الســـوادُ فـــلا ســـوادا
أرى العمـــالَ قـــد جـــاروا علينـــا بعـــاجـــلِ نِفعهـــم ظلمـــوا العبـــادا
فهـــل لـــك أن تـــداركَ مـــا لـــدينـــا وتـــدفـــعُ عـــن رعيتِـــك الفســـادا

فبلغ الشعر معاوية فعزله»[1].

وكان عبيد الله بن زياد من أشهر ولاة الكوفة الذين وُلّوا الحكم في عهد معاوية وابنه يزيدٌ من بعده، وفي عهده حصلت فاجعة كربلاء المعروفة، ويظهر أن الحالة في الكوفة ما كانت مستقرة عند وفاة معاوية، وأن جهوده وجهود ولاته الرامية لإخضاع الكوفة، ولاستتباب الأمن فيها لم تؤت ثمارها.

فيروى أن معاوية أوصى يزيداً بقول: «وانظر أهل العراق، فأن سألوك أن تعزل عنم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عاملٍ أحبُّ إليَّ من أن تُشهر عليك مائة ألف سيف»[2]. ولم تكن سياسة الشدّة المقرونة بالحكمة التي اتبعها معاوية بالعراق بقادرةٍ على اجتثاث عوامل التذمر في العراق بعامة وفي الكوفة بخاصة، وكان أهل الكوفة كما يظهر من سيرتهم مع ولاة معاوية ـ كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل ـ غير راضين عن الإدارة الأموية التي تحكم بلادهم وتخضعها للشام.

ومردُّ ذلك إلى أن العراق كان مركز المعارضة للحكم الأموي، وأخذت المعارضة في الكوفة بخاصة تتخذ بالتدريج شكل المعارضة الخطرة القائمة على الخلافات العقيدية المتمثلة بنمو التشيّع الذي اكتسب قوةً بفضل استشهاد (عليّ بن أبي طالب) وحجر بن عدي وصحبه.

وبالرغم من ذلك فإن غالبية أهل الكوفة في تلك الفترة من تاريخهم وحتى في فتراتٍ لاحقةٍ لم يكونوا مستعدّين لتقديم التضحيات الجسام في سبيل تلك العقيدة، فكانت قلوبهم مع الحسين إمام الشيعة في عهده وسيوفهم عليه، ويبدو أن بني أمية كانوا يعرفون ذلك عن أهل العراق، فروي أن معاوية قبيل وفاته قال لابنه يزيد بمعرض كلامه

(١) ابن الخشاب البغدادي، رسالة ضمن مقامات الحريري، (القاهرة، ١٣٢٦)، ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) الطبري، التاريخ، ج ٤، ص ٢٣٨.

wadod.org

يستكن ويتوجه لهم بالموعظة أو يدعوا الله أن يستبدله بخير منهم ويستبدلهم بشرٍ منه كما فعل عليّ (ع) في حالة مماثلة ـ كما أسلفنا ـ بل أنه حبس أعطيات أهل الكوفة أي رواتبهم السنوية عنهم، روى الطبري: أن المغيرة حين اختلف مع حجر بن عدي وأصحابه حبس أعطيات المعارضين، فقال له حجرٌ: «أيها الانسان مرْ لنا بأرزاقنا واعطياتنا فإنك قد حبستها عنّا وليس ذلك لكَ، ولم يطمع في ذلك من كان قبلك»[١].

ب ـ أصبحت الكوفة مهددة من الخوارج في عهد المغيرة فانتدب لحربهم جماعةً من أهل الكوفة، فقام إليه عدي بن حاتم، وقال: «كلنا لهم عدوٌ، ولرأيهم مسفهٌ، وبطاعتك مستمسكٌ، فايّنا شئت سارَ إليهم».

وقال معقل بن قيس مخاطباً المغيرة: «أنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر إلاّ وجدته سامعاً مطيعاً وأرى أصلحك الله انك لا تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشدّ عليهم منّي...» وبعد أن استوثق منه المغيرة ووبخه على مدحه لعليّ وانتقاصه لعثمان، وبيّن له أن الجهر بذلك: «لا يحتمله الخليفة لنا ولا يعذرنا فيه» أمر بإخراج الجيش معه «وهم ثلاثة آلاف، نقاوة الشيعة وفرسانهم»[٢].

اخرج المغيرة الشيعة لقتال الخوارج بالشكل الذي وصفنا، ولكن حين بلغت جيوش معاوية الأنبار وهددت الكوفة في حالة مماثلة نجد عليّاً (ع) يعامل أهل الكوفة معاملةً تختلف عمّا فعله المغيرة، قال عليٌ (ع) من خطبة طويلة:

«فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتم هذه حمّارةُ القيظ... وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القر... ـ وينهي خطبته بقوله ـ: ولكن لا رأي لمن لا يطاع»[٣].

فالكوفيون عصوا عليّاً (ع) من قبل رغم أن بلادهم مهددة بجيوش العدوّ، وأطاع المغيرة الشيعة الذين عصوا إمامهم وذلك لوجود الفرق بين طريقة عليٍّ في الحكم وطريقة المغيرة.

---

(١) أيضاً، ج ٤، ص ١٨٩.
(٢) أيضاً، ج ٤، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٣) نهج البلاغة، ج ١، ص ٦٧ وما بعدها.

wadod.org

ج ـ كان زياد بن أبيه يستخدم الحمراء في شرطته، وهم أقلية ايرانية من سكان الكوفة، قال الطبري: أن أحد أعوان حجر بن عدي اختفى عن زياد، فبعث إليه الشُرط وهم أهل الحمراء يؤمئذٍ فأخذوه[١]. وحمراء ديلم أو الحمراء قومٌ من الايرانيين سكنوا الكوفة بعد تمصيرها ـ كما أسلفنا ـ واستعمالهم في سلك الشرطة يجعلهم أشدّ وطأة وأمعن تدقيقاً في تتبع من يريدهم الحاكم، ويدلّ استخدامهم على بُعد نظر زيادٍ، ثم أن زياداً كان يصلّي في مقصورة ـ كما أسلفنا ـ ليحمي نفسه من الطوارىء... بينما نجد علياً يترك نفسه دون حراس فيُقتل بالمسجد كما هو معلوم، ويقول لابنه الحسن قبل أن يموت: «والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم»[٢]. ونتج عن الفرق بين الطريقتين في حِكم أهل الكوفة أن قال بعض المؤرخين: إن خصوم (عليّ) كانوا ناجحين في سياستهم في الكوفة، وأن أساليب (عليّ) وولديه (ع) من بعده لم تُجدِ معهم نفعاً.

وتعاقبت الأحداث في الكوفة بعد مقتل الحسين (ع). فالكوفيون الذين عادوا لتوهم من مجزرة كربلاء مثلوا أمام عبيد الله بن زياد لتهنئته بالنصر، ولكنهم بعد أن خرجوا من مجلسه سمعوا شخصاً يدعى زيد بن أرقم يوبخهم ويقول: «ملك عبدٌ عبداً فاتخذهم تلوا، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمةٍ، وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذلّ، فبعداً لمن رضي بالذل»[٣].

كما سمعوا زينب بنت عليّ (ع) تندب قتلى كربلاء وتقول: «يا محمّداه صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعرا مرملٌ بالدما، مقطع الأعضاء، يا محمّداً وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا»[٤].

ويبدو أن تلك الأقوال وأمثالها فضلاً عن غيرها من العوامل أخذت تفعل فعلها في الكوفة، لا سيما أن ولاء غالبية أهلها لنبي أمية لم يكن مبعثه الاخلاص بل التملّق

(١) التاريخ، ج ٤، ص ٢٠٩ ـ ١١٠.
(٢) أيضاً، ج ٤، ص ١١٥.
(٣) الطبري، ج ٤، ص ٣٤٩.
(٤) أيضاً، ج ٤، ص ٣٤٨.

wadod.org

لسلطانهم والخوف من سوطِهم. ومما يؤيد ذلك أن المختار لما زار عبد الله بن الزبير في مكة، سأله ابن الزبير عن حال الناس بالكوفة فأجاب المختار: «هم لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء» فقال له ابن الزبير: «هذه صفة عبيد السوء، إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم، فإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم»[١].

وكان موت يزيد المفاجيء من العوامل التي عجلت في تحول موقف غالبية الكوفيين من التأييد لبني أمية إلى الاهتمام بقضية العلويين، قال الطبري: إن عبيد الله بن زياد بعث بعد موت يزيد رسلاً من البصرة لأهل الكوفة يدعوم لبيعته ريثما يجتمع الناس على رجلٍ، فرفض الكوفيون طلبه وقال قائلهم: «أنحن نبايع لابن مرجانة لا ولا كرامة»[٢].

يضاف إلى ذلك أن طائفة كبيرة منهم انضمت إلى حركة عُرفت بحركة التوّابين، هدفها التكفير عن الذنوب التي لحقت بأصحابها من جراء تقاعسهم عن نصرة الحسين، وذلك بأخذ الثأر من قاتليه، ويقول الطبري في حوادث سنة ٦٥ هـ: «وفي هذه السنة تحركت الشيعة بالكوفة، واتعدوا الاجتماع بالنخيلة. . . للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علي، وتكاتبوا في ذلك»[٣]، وأوكل التوابون قيادة حركتهم لسليمان بن صُرَد الخزاعي شيخ الشيعة[٤] وكان نصيب التوّابين الفشل في الحرب، ولكن حركتهم أصبحت فيما بعد من العوامل المساعدة على تثبيت بذور التشيّع في الكوفة. يقول فلهاوزن: «والكوفيون الذين جرّوا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلاها راح ضميرهم يؤنّبهم على ما اقترفت أيديهم، فشعروا بالحاجة إلى إرضاء الربّ وبالكفارة عن أثمهم بالتضحية بأنفهسم، فسموا أنفسهم (التوّابين) وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم»[٥].

وبعد فشل حركة التوابين تسلّم المختار قيادة الشيعة بالكوفة، وعمل المختار باسم محمّد بن الحنفية أحد أبناء عليّ (ع) من غير فاطمة، ووصفه بأنه المهديّ المنتظر،

(١) أيضاً، ج ٤، ص ٤٤٤.
(٢) أيضاً، ج ٤، ص ٤٠٤.
(٣) أيضاً، ج ٤، ص ٤٢٧.
(٤) البلاذري، أنساب الإشراف، ج ٥، (القدس، ١٩٣٦) ص ٢٠٥.
(٥) الخوارج والشيعة، ص ١٨٩.

wadod.org

ولكنه لم يكن شديد الاخلاص لقضية العلويين بعامة وابن الحنفية بخاصة.

ويظهر أن المختار أراد بترويجه لفكرة مهدية محمدٍ أن يستفيد من اسمه سياسياً دون أن يشركه بالسلطة الفعلية، وعندما همَّ «ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه، فقال: إن في المهدي علامة، يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل في السوق بالسيف لا تضره... فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام»[١].

وقد أملت على المختار عواطفه العلوية، ومقتضيات سياسته الواقعية أن يثأر من قتلة الحسين في الكوفة بما فيهم عمر بن سعد قائد الجيش الأموي الذي صنع فاجعة كربلاء، وقد وضّح المختار منهجه بالعمل في رسالةٍ بعث بها إلى رفاعة بن شداد حين رجوعه من معركة عين الوردة التي هزم فيها التوابون، وجاء في الرسالة المذكورة. «أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه (ص)، وإلى الطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء»[٢]، وربما قصد المختار بعبارة الضعفاء الذين يريد الدفاع عنهم، الموالي أي المسلمين من غير العرب، وفعلاً استهوى المختار الموالي لأغراض سياسية فأدخلهم في جيشه بعد أن استتب له الأمر، وساواهم بالعطاء مع العرب مما أثار حفيظة العرب من أهل الكوفة، فقالوا: «عمدت إلى موالينا وهم مما أفاء الله علينا وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم نأمل الأجر... فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا...»[٣]، وكان الموالي الذين أدخلهم المختار في جيشه من الغلاة الكيسانية القائلين بإمامة ابن الحنفية، ويعدُّ المختار في تبنّيه فكرة عدم التميّز العنصري بين المسلمين من عرب وغيرهم من دعاة الاصلاح في الإسلام. يقول فلهاوزن: «وكان تحوّل الموالي إلى شيعة غلاة حادثاً ذا أهمية في التاريخ العالمي... وشاء (المختار) القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى، والمسلمين من الطبقة الثانية، فمن يأخذ عليه ذلك، لا يكون له الحقّ في أن يأخذ على الحجّاج أنه عمل العكس فأكّد هذه الفوارق بكل قوة وأعادها إلى ما كانت عليه، والحقّ أن المختار خليق بالمدح لكونه كان أسبق من غيره في إدراك أن الأحوال القائمة

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٧٤.
(٢) الطبري، ج ٤، ص ٤٧١.
(٣) الطبري: ٤: ٥١٨.

wadod.org

آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هي، إذ لم يكن الإسلام بل العنصر العربي هو الذي يعطي الحقوق المدنية الكاملة في الحكومة الدينية، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلي لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية»[١].

وبعد أن فشلت حركة المختار وحكم الزبيريون الكوفة لفترة قصيرة آل أمر الكوفة إلى الحجّاج والي الأمويين في العراق، وقد منحه الخليفة عبد الملك بن مروان سلطات واسعة، ذكر اليعقوبي: أن عبد الملك كتب للحجّاج كتاباً بخطه: «أما بعد يا حجّاج فقد ولّيتك العراقين صدقة، فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأةً يتضاءل منها أهل البصرة»[٢].

وعندما قدم الحجّاج للكوفة ذكر الخطوط العامة لسياسته في خطبة ألقاها من على منبرها، ويبدو أنه كان ينوي تفضيل سياسة الشدّة على اللين، فقال مخاطباً أهل الكوفة: «فأنكم طالما أوضعتم الفتن، وسننتم سننَ الغي، أما والله لألحونكم لحوَ العودِ، ولاعصبنّكم عصبَ السلمةِ... والله لتستقيمن في سبيل الحق، أو لأدعن لكل رجلٍ منكم شغلاً في جسده...»[٣]، وفي مناسبة أخرى وصف أهل العراق بالنفاق والشقاق ومساوىء الأخلاق، وقال: «فأقسم بالله، لأوشك أن أوقع بكم وقعةً تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها»[٤].

وقد حاول الحجّاج أن يطبق سياسه التي أعلنها بخطبه المذكورة خلال حكمه للكوفة، وكان يستفز أهل الكوفة في غالب الأحيان ويثير حفيظتهم بإثارة قضايا وثيقة الصلة بحياتهم، وفضلاً عن ذلك كان يتهمهم بالجبن، وعدم الإخلاص في حرب الخوارج الذين أربكوا سياسته في ذلك الحين، روى الطبري: أن الحجّاج كتب إلى عبد الملك بن مروان: «أما بعد فإني أخبر أمير المؤمنين... ان شبيباً قد شارف المدائن وإنما يريد الكوفة، وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلِّها يقتل أمراءهم ويفلُّ جنودهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليّ أهلَ الشام فيقاتلوا عدوهم

(١) الخوارج والشيعة، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) التاريخ، ج ٣، ص ١٨.
(٣) الطبري، المصدر السابق، ج ٥، ص ٤١.
(٤) أيضاً، ج ٥، ص ٤٣.

wadod.org

ويأكلوا بلادهم فليفعل . . .»[١].

ويبدو أن الحكومة المركزية كانت تشارك الحجّاج رأيه في أهل الكوفة، وذات مرة قتل أحد قواد الحجّاج في حربه مع الخوارج، فأخبر الخليفة عبد الملك بذلك، فما كان من الخليفة إلاّ أن ذمَّ أهل الكوفة علناً بمنى حيث كان يؤدّي مناسك الحج هناك[٢].

إن ما قررناه يمثل رأي الأمير وخليفته في أهل الكوفة خلال حربهم مع الخوارج، مع أن الكوفيين في معركة واحدة مع شبيب الخارجي خسروا مائة وعشرين شخصاً من كنده، وألفاً من سائر الناس، هذا فضلاً عن مقتل عظيم العرفاء[٣]، ومن الجدير بالذكر أن الكوفيين لم يكونوا مسؤولين كلية عن خسارة تلك المعركة، بل أن الحجّاج كان يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية عن الفشل فيها، وذلك أن الحجّاج كان يشك في إخلاص عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الأشعث، ويتهمه في التباطؤ في حرب الخوارج، فعزله عن قيادة الجيش الذي خسر المعركة السابقة، ثم أوكل قيادة ذلك الجيش إلى قائد جديد ذي خبرة ناقصة في الحرب، وذي غرور كبير مما أدى إلى خسران المعركة[٤].

ويبدو أن الحجّاج كان أنانياً يعمل على إبراز شخصه في الأحداث العامة دون الاهتمام التام بمصلحة من يحكمهم، أو من يحكم باسمهم، والأدلة على ذلك كثيرة:

أولاً: التخلص من محمد بن موسى بن طلحة رغم أن في هلاكه ضررٌ للحكومة الأموية التي كان الحجّاج موظفاً فيها، وكان الحجّاج غير مرتاح للصلة الوثيقة الموجودة بين محمدٍ والخليفة عبد الملك، والتي كان من نتيجتها أن يوكل الخليفة لمحمدٍ هذا بمهمّة عسكرية في سجستان دون استشارة الحجّاج. ولما نزل محمد الكوفة في طريقه إلى سجستان أشار عليه الحجّاج أن يحارب الخوارج بدلاً من الذهاب إلى مهمّته الأصلية، مع العلم أن قلّة خبرة محمد بحرب الخوارج، وعدم استعداده التام للقائهم يوحيان بأن فشله في حربهم يكاد أن يكون محققاً.

---

(١) الطبري، ج ٥، ص ٨٥.
(٢) أيضاً، ج ٥، ص ٤٨.
(٣) أيضاً، ج ٥، ص ٨٢.
(٤) الطبري، ج ٥، ٨٠ وما بعدها.

wadod.org

قال الطبري: ولّى عبد الملك محمد بن موسى، سجستان: «فمر بالكوفة وبها الحجّاج بن يوسف، فقيل للحجّاج إن صار هذا إلى سجسان مع نجدته وصهره لعبد الملك فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلب منعك منه، قال: فما الحيلة؟ قيل تأتي وتسلّم عليه وتذكر نجدته وبأسه، وأن شبيباً في طريقه، وأنه قد أعياك، وأنك ترجو أن يريح الله منه على يده فيكون له ذكرُ ذلك وشهرته، ففعل فعدل إليه محمدٌ... فواقعة شبيبٌ... فبارزه شبيب فقتله»[١].

ثانياً: كان اعتداد الحجّاج برأيه وتدخله في قضايا تدخل في صميم اختصاص ذوي العلاقة من الأسباب التي ألحقت بالدولة أضراراً كبيرة، وسبق أن بيّنا أن تدخلّه في شؤون أحد قواده الذي أرسله لحرب الخوارج كان من بين الأسباب التي أدّت إلى هزيمة جيش الحكومة، ثم أن تدخله في شؤون قائده ابن الأشعث حمل الأخير على العصيان والقيام بثورة في الكوفة كادت تطيح بحكم الأمويين في العراق، وكان الحجّاج قد أرسل ابن الأشعث لفتح بلاد رتبيل رغم مما بين الاثنين من فقدان الثقة وخلافٍ في الرأي[٢].

وقد تصرف ابن الأشعث في ساحة المعركة بما يمليه عليه واجبه، ورأى أن يتمهل في حربه مع العدو، وكان: «كلما حوى بلداً بعث عليه عاملاً، وبعث معه أعواناً، ووضع البرد فيما كان بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب...»[٣]، وعندما اطلع ابن الأشعث الحجاج على خططه رفضها، وعزا تمهله في فتح البلاد إلى عدم مقدرته، ثم أرسل الحجّاج كتباً متلاحقة يدعوه فيها إلى تنفيذ اقتراحاته، وإذا لم يفعل عليه أن يعتزل العمل، وعندما وصلت كتب الأمير إلى ابن الأشعث أطلع الجيش على جلية الأمر، فما كان منهم إلاّ أن رفضوا خطط الحجّاج واتهموه بأنه يريد هلاكهم. قال الطبري: أن أحد أفراد جيش ابن الاشعث قال عندما سمع بما عزم عليه الأمير: «أن الحجّاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللّهوب واللّصوب، فإن ظفرتم فغنمتنم أكل البلاد وحاز المال... وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء»[٤].

---

(١) أيضاً، ج ٥، ص ٧٧.
(٢) أيضاً، ج ٥، ص ١٤٠.
(٣) أيضاً، ج ٥، ص ١٤١.
(٤) أيضا، ج ٥، ص ١٤٧.

wadod.org

وكانت النتيجة أن خلع ابن الأشعث وجنده طاعة الحكومة، وحصلت بين الفريقين حرب كلّفت الدولة وأهل الكوفة أموالاً طائلة ونفوساً كثيرة.

ثالثاً: كان الحجّاج يجعل مقتضيات سياسته المحلية وخلافاته الشخصية تطفو على المصالح الأساسية للدولة، روى البلاذري: أن بني أمية استصلحوا أجزاء من البطائح في العهود السابقة لحكم الحجّاج في الكوفة، وفي عهد معاوية فقط أصلح ما غلته خمسة ملايين درهم: «فلما كان زمن الحجّاج غرق ذلك لأن بثوقاً انفجرت فلم يعان الحجّاج سدّها مضارة للدهاقين، لأنه كان اتهمهم بممالأة ابن الأشعث حين خرج عليه»[١].

رابعاً: كان الحجّاج ـ إن صحت الروايات ـ يثير قضايا خطيرة وثيقة الصلة بالدين، وإن الفائدة الآنية ـ إن كانت لها فائدة ـ لا تتناسب وما تثيره تلك القضايا من مشكلات خطيرة للأمير وللخليفة معاً، روى الطبري: أن الحجّاج بعد أن انتصر على ابن الأشعث: «كان لا يبايعه أحد إلاّ قال له: أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال: نعم، بايعه وإلاّ قتله...»[٢].

روى المسعودي خبراً رفعه إلى الربيع بن خالد قال: «سمعت الحجّاج يخطب على المنبر وهو يقول: أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟ فقلت: الله عليّ أن لا أصلّي خلفك أبداً، ولئن رأيت قوماً يجاهدونك لاقاتلنك معهم...»[٣].

وتولى الكوفة بعد الحجّاج عددٌ من الولاة، منهم: خالد بن عبد الله القسري، وكان خالدٌ ذا قدرة كبيرة في الشؤون الاقتصادية، وقد استُصلحت على يده وبإشراف الخليفة هشام مناطق كبيرة من البطيحة، وكان حسان النبطي من الخبراء الاقتصاديين الذين استعان بهم خالد في هذا الخصوص[٤] وتمكّن خالد نتيجة لذلك من اقتناء عدد كبير من المقاطعات الخصبة التي كانت تدرّ عليه غلات كبيرة، وذكر الطبري: أن هشام بن عبد الملك سأل حسان النبطي عن غلة خالد فقال: ثلاثة عشر ألفَ ألفٍ[٥].

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٩١.
(٢) التاريخ، ج ٥، ص ١٦٩.
(٣) المسعودي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٧.
(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩١.
(٥) التاريخ، ج ٥، ص ٤٦٨.

wadod.org

ويذكر الطبري أيضاً أسماء ضياع خالد، ويبيّن أن هشاماً عزله لأنه: «اعتقد بالعراق أموالاً، وحفر أنهاراً حتى بلغت غلّته عشرين ألفَ ألفٍ، منها نهر خالد، وكان يغلّ خمسة آلافِ ألفٍ. . . .»[١]. وكان خالد يؤخر بيع غلّته فيرتفع سعر القمح، وسبق أن بيّنا أن خالد جدد بناء سوق الكوفة وعقد سقوفه بالآجر والجص، كما أنه ضرب نقوداً فضية ذات عيار جيد.

وبعد أن عُزل خالد تولّى يوسف بن عمر ولاية الكوفة، وفي عهده حصلت ثورة زيد بن عليّ في الكوفة، وكان من بين الشعارات التي أطلقها زيد للدفاع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسّم هذا الفيء بين أهل السواد، وإعادة الحق إلى أهل البيت.

وقد فشلت ثورة زيد كما هو معروف، ومع ذلك كان لمقتله أثر مهم في تكتل الشيعة وازدياد غضبهم على حكم الأمويين، قال اليعقوبي: «ولمّا قُتل زيد وكان من أمره ما كان، تحركت الشيعة بخراسان، وظهر أمرهم، وكثر من يأتيهم ويميل معهم، وجعلوا يذكرون للناس فعل بني أمية وما نالوا من آل رسول الله (ص) حتى لم يبق بلدٌ إلاّ فشا فيه هذا الخبر وظهرت الدعاة. . .»[٢]، وكان لموت زيد نتيجة أخرى، وهي أن موته أزال من طريق الدعوة العباسية منافساً قوياً[٣]، يضاف إلى ذلك أن حركته كانت احتجاجاً على فقدان العدل الاجتماعي.

الحركة الفكرية في الكوفة:

كانت منطقة الكوفة ملتقى لثقافاتٍ متعددةٍ بما فيها الثقافة الإسلامية العربية الوافدة إليها بعد تمصير الكوفة، وقد نزل الكوفة بعد تمصيرها عددٌ من الصحابة الذين كان كثير منهم ذا معرفة بكتاب الله وسنّة رسوله، قال ابن سعد: «هبط الكوفة ثلمثائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر. . وكان عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود من بين هؤلاء، وكان ابن مسعود من مشاهير علماء عصره، وقد وصفه الخليفة عمر (ر)

(١) أيضاً، ج ٥، ص ٤٧٥.
(٢) التاريخ، ج ٣، ص ٦٦.
(٣) أمير علي، مختصر تاريخ العرب، (بيروت، ١٩٦١)، ص ١٥٥.

wadod.org

بسعة العلم، وقال: «آثرت أهل الكوفة بعبد الله على نفسي».

وكتب إلى أهل الكوفة يقول: «بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً... فخذوا عنه»[١].

وقد اشتغل ابن مسعود بإقراء القرآن وتفسيره ورواية الحديث، روى الطبري: أن شخصاً اسمه مسروق، قال: «كان عبد الله (بن مسعود) يقرأ علينا السورة، ثم يحدّثنا فيها ويفسرها عامة النهار»[٢]، ويظهر أن جهود ابن مسعود في التعليم والرواية أثمرت بصورة جيدة، وذات مرة قال ابراهيم التيمي: «كان فينا ستون شيخاً من أصحاب عبد الله»[٣]. كما إن عبد الله بن مسعود أصبح صاحب طريقة خاصة به في قراءة القرآن، ثم كان لوجوده في الكوفة أثرٌ في شيوع طريقته تلك بالعراق، فكان العراقيون حسب رواية الطبري يقرأون بقراءة ابن مسعود، بينما أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب»[٤]. ويظهر أن آراء ابن مسعود في التفسير والإقراء كانت متقاربة مع آراء عليّ بن أبي طالب، إذ: «كان أصدق الناس عند الناس على عليّ أصحاب عبد الله»[٥].

وبعد أن جعل عليٌ (ع) الكوفة قاعدة خلافته عمل هو وعددٌ من أصحابه على نشر الثقافة الإسلامية فيها، وكان عليٌ (ع) على أغلب الروايات أكثر الصحابة علماً وأغزرهم معرفةً بالقرآن والسنّة.

وسُمع عليٌ مرةً يقول: «لو سألتموني عن آيةٍ آيةٍ في ليلٍ نزلت أو في نهارٍ أُنزلت، مكيها ومدنيها، وسفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم...»[٦].

ووصف الخليل بن أحمد الفراهيدي عليّاً بأنه: أعلم الصحابة[٧]، ويقول ابن شهراشوب: أن القراء السبعة إلى قراءة عليّ يرجعون، وأن حمزة والكسائي يعوّلان على قراءة عليّ وابن مسعود، وليس مصحفهما مصحف ابن مسعود، فهما إنما يرجعان إلى

(١) الطبقات، ج ٦، ص ٤، ٧.
(٢) التفسير، ج ١ (القاهرة، ١٣٧٤)، ص ٨١.
(٣) ابن سعد، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥.
(٤) التفسير، ج ١، ص ٦٠.
(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٥.
(٦) ابن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١ (النجف، ١٩٥٦) ص ٣١٨.
(٧) أيضاً، ج ٣، ص ١٥.

wadod.org

عليّ ويوافقان ابن مسعود فيما يجري من الأعراب، وقد قال: «ابن مسعود: ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن». وأما عاصم فقرأ على أبي عبد الرحمن السلمي. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «قرأت القرآن كله على عليّ بن أبي طالب، فقالوا أفصح القراءات قراءة عاصم؛ لأنه أتى بالأصل وذلك أنه يظهر ما أدغمه غيره ويحقق من الهمز ما ليّنه غيره، ويفتح من الألفات ما أماله غيره»[١].

ونال عليّ (ع) فضلاً عن ذلك شهرة واسعة في الفقه، وقد أورد المفيد[٢] وابن شهراشوب[٣] طائفة من قضايا وفتاواه الفقهية، وتأثر جماعة من فقهاء الأجيال اللاحقة في الكوفة بآراء عليّ الفقهية.

قال ابن شهراشوب: «أما أهل الكوفة وفقهاؤهم سفيان الثوري، والحسين بن صالح بن حيّ، وشريك بن عبد الله، وابن أبي ليلى، وهؤلاء يفرّعون المسائل ويقولون هذا قياس قول عليّ، ويترجمون الأبواب بذلك».

وابن سيرين الفقيه البصري، يفصح بأنه أخذ عن الكوفيين، وقال: «محمد بن الحسن الفقيه: لولا عليّ بن أبي طالب ما علمنا حكم أهل البغي، ولمحمدٍ بن الحسن كتابٌ يشتمل على ثلثمائة مسألة في قتال أهل البغي بناه على فعله»[٤].

وإذا علمنا أن محمد بن الحسن هذا المعروف بالشيباني، كان تلميذ أبي حنيفة، والشارح الرئيسي لآرائه الفقهية، نقدّر مدى تأثير فقه عليّ (ع) في مدرسة الكوفة الفقهية المستندة على الرأي والقياس، والتي أسسها في الكوفة أبو حنيفة، الفقيه الكوفي المعروف، وقد أصبحت آراء أصحاب تلك المدرسة بمثابة الفقه الرسمي للدولة الإسلامية خلال العهد العباسي.

وذكر اليعقوبي جماعة من تلامذة الإمام عليّ (ع) الذين كانوا يحملون العلم عنه، وكان من بينم الحارث الأعور، وأبو الطفيل عامر بن وائلة، وحبّة العرني، ورشيد الهجري، وجويرية بن مسهر، والأصبغ بن نباته، وميثم التمار، والحسن بن علي[٥]. وكان أبو رافع من تلامذة علي أيضاً، وألف كتاب السنين والأحكام

(١) أيضاً، ج ١، ص ٣٢١.
(٢) الارشاد (طهران، ١٣٧٧) ص ٩٢ وما بعدها.
(٣) المناقب، ج ٢، ص ١٧٥ وما بعدها. وأفرد ابن شهراشوب باباً خصة لقضاياه بالكوفة أثناء خلافته.
(٤) ابن شهراشوب، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢٢.
(٥) التاريخ، ج ٢، ص ١٩٠.

wadod.org

والقضايا[١].

وتبنّى فقه عليّ أحفاده وشيعته من بعده، ومن أشهر الفقهاء، من أحفاده الأمامين محمد الباقر، وجعفر الصادق (ع) اللذين كانا رغم وجودهما في الحجاز على صلة وثيقة بشيعتهما بالكوفة، وكان الإمامان المذكوران من أشهر واضعي أسس الفقه الإسلامي بعامة والجعفري بخاصة، وقد وصفهما الجاحظ بأنهما علّما الناس الفقه[٢]، أما دور الإمام الصادق في نقل العلوم الإسلامية للكوفيين فيقول عنه الوشاء: «أدركت في هذا المسجد[٣] تسع مائة شيخ، كلٌ يقول حدثني جعفر بن محمد»[٤].

ونختم كلامنا عن دور الكوفة في وضع أسس الدراسات الفقهية عند المسلمين برواية ياقوت، عن سفيان الثوري، الذي قال: «خذوا المناسك عن أهل مكة، وخذوا القراءة عن أهل المدينة، وخذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة»[٥].

أما النثر البليغ، فكان نصيب الكوفة منه في الفترة التي تناولناها في البحث غير قليل، وقد قضى عليٌ سيد خطباء العرب شطراً من حياته كما ألقى معظم خطبه في الكوفة.

قال ماسنيون: «وأما في النثر ففي الكوفة تكوّنت تلك المجموعة المعتبرة النفيسة (نهج البلاغة) الحاوية على الخطب والمواعظ التي ألقاها عليٌ هناك»[٦].

وكانت خطب طائفة من زعماء الخوارج، وخطب زياد بن أبيه، والحجّاج، وزيد بن عليّ تصلح بمثابة نماذج جيدة للنثر في ذلك العصر.

أما الشعر العربي وما له صلةٍ به من العلوم كالعروض، فلم يكن نصيب الكوفة منه حينذاك قليل الأهمية، وقد وردت إشارة يستفاد منها أن أحد المشتغلين بالعروض قبل أن يضع الخليل قواعده ربما كان كوفياً.

قال ابن شهراشوب: أن الخليل بن أحمد: «أخذ رسم العروض عن رجلٍ من أصحاب محمد الباقر، أو عليّ بن الحسين، فوضع لذلك أصولاً»[٧]، ولما كان أصحاب

(١) الكشي، محمد بن عمر، الرجال (النجف، ١٣٨٣) ص ٧٦.
(٢) الرسائل، باعتناء السندوبي (القاهرة، ١٩٣٣)، ص ١٠٨.
(٣) يعني مسجد الكوفة.
(٤) النجاشي، الرجال (طهران، لا.ت) ص ٣١.
(٥) معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٩٩.
(٦) خطط الكوفة، ص ١٣.
(٧) المناقب، ج ١، ص ٣٢٦.

wadod.org

الامامين المذكورين كانوا حينذاك من أهل الكوفة في الغالب الأعم، ربما أن صاحب الإمام الذي استفاد منه الخليل كان كوفياً.

ومن شعراء الكوفة في الفترة موضوع البحث حنين الحيري: «وكان شاعراً مغنياً فحلاً من فحول المغنين». وقد عاصر هشام بن عبد الملك ونال جائزته[١]، ومن شعرائها الحكم بن عبدل «ومنزله ومنشأه الكوفة» وهو من شعراء الدولة الأموية[٢]، وكان الكميت بن زيد الأسدي العالم بلغات العرب وصاحب الهاشميات من أشهر شعراء الكوفة في هذه الفترة.

وذات مرة دخل على الباقر فقال له الامام: «والله يا كميت لو أن عندنا مالاً لاعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله لحسان: لا يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا»[٣].

ويقول الدكتور مهدي المخزومي: «ولعلّ السبب في عناية الكوفة بالأشعار، ورواية الأدب يرجع إلى أنها لا تزال تحتفظ بعادات العرب، وتقاليدها الأولى، وتغنيها بالبطولة، وتفاخرها بالأبطال، وذلك لأنها منازل العربية الارستقراطية، وموطن امراء القبائل»[٤].

وكانت الكوفة فضلاً عن ذلك، منشأ الخط العربي الكوفي وموطن تطوره[٥]. أما النحو فيبدو أن الكوفة في الفترة التي تناولها بحثنا، لم تسهم فيه إسهاماً مهماً.

قال المخزومي: «فالنحو إذن لم ينشأ في الكوفة، وإنما وفد عليها من البصرة، ونشره فيها بصريون جاءوا إلى الكوفة واستوطنوها، وكوفيون رجعوا من البصرة بعد ما تلمذوا لشيوخها، لينشروا بين الدارسين ما تعلّموه هناك» ثم يقول: «ولا نكاد نعرف في الكوفة نحوياً ـ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ـ قبل الكسائي..»[٦]، ولما كان عصر الكسائي لا يتناوله بحثنا لم نر ضرورة للبحث عن النحو في الكوفة.

ونختم حديثنا عن الكوفة بالآراء والملاحظات التالية:

أولاً ـ كانت الكوفة تميل في عقيدتها السياسية للالتزام بالحق الشرعي، أيّ أنها تشترط توفر الشرعية في حكّامها. ونتيجة لذلك نجد أن فكرة النصّ والتعيين في الإمامة

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج ٢ (بيروت، ١٩٥٦)، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٢) أيضاً، ج ٢، ص ٢٨٣.
(٣) الكشي، الرجال، ص ١٨١.
(٤) مدرسة الكوفة، بغداد، ١٩٥٥، ص ٥٧.
(٥) ماسنيون، المصدر السابق، ص ١٣.
(٦) مدرسة الكوفة، ص ٥٧ ـ ٥٨.

wadod.org

الشيعية تجسد قبولاً كبيراً في الكوفة، وكان للامامين الباقر والصادق وهما من أئمة الشيعة أسلاف الامامية، اليد الطولى في تثبيت فكرة الإمام المنصوص عليه ونشرها بين أسلاف الامامية بعامة، ومن بينهم أهل الكوفة بخاصة.

وكان لنجاح الامامين المذكورين في تثبيت فكرة النصّ على الامام أثر كبير في نشر عقيدة الشيعة بين معتنقيها من أسلاف الإمامية؛ لأن القول بالنصّ بنوعية الجلي والخفي، أسَّ التشيّع الامامي وجوهره، وعرف الكتّاب الشيعة أسلاف الامامية بأنهم هم الملتزمون بالوصية والسائرون على المنهاج الأول، ويقصدون بذلك أن أولئك الشيعة يلتزمون بنصّ النبي (ص) على خلافة عليّ (ع) وإمامته ونصّ عليّ على من بعده، وهكذا ينصّ المتقدم منهم على من بعده حتى تمت سلسلة الأئمة الاثني عشر المعصومين من ولد عليّ من فاطمة، والتي تنتهي بالامام الغائب (ع).

ويعزى ميل الكوفة إلى الشرعية في السياسة إلى انتشار العقيدة التي اعتنقها الشيعة أسلاف الامامية فيها بصورة مبكّرة أولاً، وإلى ما ورثته من تقليد الساسانيّين في الحكم ثانياً، وإلى أن معظم سكانها العرب كانوا من اليمانيين الذين ألفوا ذلك النوع من الحكم في وطنهم الأصلي ثالثاً.

ثانياً ـ اتخذت الكوفة فكرة «الاجتهاد» واستنباط الأحكام الفقهية من أدلّتها الشرعية أساساً لبناء تراثها الفكري في الحقوق، وتجلى الاتجاه المذكور ليس عند الشيعة أسلاف الامامية وحسب، بل ظهر عند غيرهم من المسلمين الكوفيين أمثال أبي حنيفة (ر).

ثالثاً ـ الجانب الاجتماعي في حركات الغلاة الكوفيين: كانت الكوفة المركز الرئيس لغلاة الشيعة، إن ظهور الغلو في الكوفة دليلاً على التقدم الفكري العميق والوعي الاجتماع عند أهل الكوفة، لأن في الغلو، رغم انحراف القائلين به عن الاسلام، جانباً اجتماعياً ايجابياً؛ وذلك أن القائلين به كانوا بالنسبة لمعاصريهم أكثر شعوراً بظلم الانسان لأخيه الإنسان.

ويبدو أن أكثرية الغلاة، اتخذت من الغلو وسيلة للثورة الاجتماعية على الطبقية والعشائرية اللتين تبناهما حكّام المسلمين حينذاك. ولعلّ في حركة المختار التي انضم إليها الغلاة، الذين كانت غالبيتهم من المستضعفين في الأرض، دليلاً على وجود الجانب الاجتماعي في حركات الغلو... ثم إن الغلاة كانوا بمثابة العمود الفقري للدعوة العباسية لأن قادتها قالوا بالدعوة إلى الرضا من آل محمد ودعوا إلى تطبيق العدل الاجتماعي بين المسلمين كافةً.

* * * * *

wadod.org

الكوفـــة الغـــراء

أرض الرسالات السماوية وعاصمة الخلافة الإسلامية

الأستاذ الدكتور: محمد حسين علي الصغير

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث أحسبه جديداً في العرض والأكتشاف والنتائج، يُعنى بتأصيل حاضرة الكوفة بأعتبارها مركز الأشعاع الأنساني الأول، ويستظهر تأريخها القديم رسالياً وحضارياً وقومياً، ويستقرئ بصماتها في وضع الأركان الأساسية للتراث العالمي المجهول، نخلص من ورائه الى قراءة معاصرة للبشرية وتتابع الأجيال، ونذهب فيه مذهب البحث الموضوعي في إستكناه الحقائق ، آملين التوفيق باستيحاء العظة والعبرة، أعتداداً بالماضي المجيد، وتطلعاً للمستقبل المشرق ، لا نغالي في القول ، ولا نبالغ في الأستذكار ، بل هي الطريقة المثلى التي تقود الى أستلهام القيم والأفكار والفضائل في ظلال من القرآن الكريم ، وفي أستخلاص للتأريخ الشريف دون تزيد أو اضافة .

وهذا كله لا ينافي أن نأنس بأمجاد الكوفة أصلاً وعراقةً وكرامة ، فالكوفة أحدى المدن الأربع : مكة ، المدينة ، القدس ، الكوفة . والتي أختارها الله تكريماً لها دون أرضه الواسعة .

في الحديث : ((أن الكوفة حرم الله وحرم رسوله (ص) وحرم أمير المؤمنين)) عليه السلام .

ومسجدها الكبير قد صلى فيه ألف نبي، وألف وصي نبي كما في الأثر .

وهو أحد المساجد الأربعة : بيت الله الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى، ومسجد الكوفة .

ويستفاد من بعض الروايات: فضل مسجد الكوفة على المسجد الأقصى في بيت المقدس.

وروى مشايخ الحديث عن هارون بن خارجة ، قال : قال أبو عبد الله الصادق صلوات الله عليه من حديث ((..... ما من نبي ولا عبد صالح ألا وقد صلى في مسجد الكوفة . حتى أن رسول الله (ص) لما أسري به الى السماء ، قال له جبرائيل : أتدري أين أنت يا محمد ؟ أنت الساعة مقابل مسجد كوفان، قال: فاستأذن ربي حتى آتيه فأصلي فيه ركعتين . فنـــزل فصلى فيه)) [1]

---

(١) ظ: الكافي والمفاتيح / ٨٣٦ وأنظر مصادره .

wadod.org

وفي وسط المسجد اليوم ، مقام النبي محمد (ص) ويدعى هذا المقام بدكة المعراج، ووجه تسميته بذلك — فيما يبدو — ما تقدم.

ولك أن تقول أن الكوفة ومسجدها قد أختطهما سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية لتكون معقلاً للجيش الأسلامي ، فكيف أهتدى سعد لهذه البقعة ؟ وهذا الأيراد صحيح لا غبار عليه ، ولكننا لو دققنا النظر فيما وراء التأريخ ، لرأينا أن الخليفة عمر بن الخطاب(رض) قد أرسل سعداً قائداً للجيش ، ومعه مستشاران :

أولهما : حذيفة بن اليمان، صاحب سرّ رسول الله (ص) الذي أسرّ أليه بأسماء المنافقين، وشخّص له أعيانهم، وهو الوالي على المدائن فيما بعد القادسية من قبل عمر نفسه.

وثانيهما : سلمان المحمدي الذي قال فيه رسول الله (ص) : ((سلمان منا أهل البيت)) و ((ولا تقولوا سلمان الفارسي وقولوا سلمان المحمدي)) وقد روي أن النبي (ص) وأمير المؤمنين (ع) ((قد علماه من علم الله المخزون المكنون ما لا يطيق حمله سواه)) [١]

وحينما أراد سعد تعيين موضع مسجد الكوفة ، أشار عليه كلٌّ من حذيفة وسلمان ، بهذا الموقع بالذات ، وقرب هذين الصحابيين الجليلين من رسول الله (ص) وأمير المؤمنين معروف ، فما يدرينا أن يكون ذلك بعلمهما ، وبتوجيه او أمر منهما ، ويؤيده أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام ، قد أختار الكوفة من بين حواضر العراق عاصمه للخلافة الإسلامية ، وأتخذ مسجدها قاعدة لحكمه وبالضبط في الثاني عشر من رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة النبوية الموافق للرابع من كانون الثاني عام ٦٥٨ ميلادية ، وهو التأريخ الذي تبركت به جامعة الكوفة الموقرة ، وبأشارة مني ، فجعلته يومها المتجدد في كل عام ، فكان ذلك مدعاة أعجاب وتقدير .

(١) الكوفة آثاريــاً قبل الأسلام :

تشير الروايات التأريخيه المقطوع بصحة سندها ومتنها أن آدم ونوحاً عليهما السلام قد دفنا في البقعة المباركة التي دفن فيها الأمام علي عليه السلام في ظهر الكوفة ، وهي النجف الأشرف.[٢] ففي زيارة الأمام الأولى، وقد رواها الأثبات من العلماء منهم :

١. محمد بن محمد بن النعمان، العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) في الأمالي .

٢. رضي الدين، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) في مصباح الزائر.

---

(١) المفاتيح / ٤٩٢ وأنظر مصادره

(٢) ظ: أبن بطوطة / رحلة أبن بطوطة ١ / ١٠٩ + جعفر محبوبة / ماضي النجف / ١٣

wadod.org

٣. غياث الدين ، عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ت ٦٩٣ هـــ) في عمدة الزائر وفرحة الغري.

٤. أبو عبد الله ، محمد بن مكي الدمشقي العاملي الجزيني ، المعروف بالشهيد الأول (ت٧٨٦هـــ) في كتابه المزار ، وسواهم لا سيما بحار الأنوار في مواضع عديدة ، وقد وردت العبارة الأتية : ((السلام عليك يامولاي وعلى ضجيعيك آدم ونوح ورحمة الله وبركاته)).

وفيها : ثم عد الى جانب رأس أمير المؤمنين لزيارة آدم ونوح عليهما السلام ، وقل في زيارة آدم : ((السلام عليك ياصفي الله ..... السلام عليك يا خليفة الله في أرضه ، السلام عليك يا أبا البشر، السلام عليك وعلى روحك وبدنك .)) فبدنه أذن في البقعة الطاهرة من النجف ، وقد خص بالسلام .

وفيها : وقل في زيارة نوح عليه السلام : ((السلام عليك ياشيخ المرسلين . صلوات الله وسلامه عليك وعلى روحك وبدنك وعلى الطاهرين من ولدك ورحمة الله وبركاته)) .

وهناك أثار عظيمة في مسجد الكوفة وفي بعض أسطواناته بالضبط، ففي الأسطوانة السابعة المسماة بمقام آدم عليه السلام، أنها مقام وفق الله تعالى فيه آدم للتوبة. وأن صح هذا فالكوفة موطن أول الخليقة البشرية ، وقد يدل عليه ما رقم في الأسطوانة أثارياً من الدعاء الذي أوله: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله (ص) ولا آله ألا الله، محمد رسول الله، السلام على أبينا آدم، وأمنا حواء، السلام على هابيل المقتول ظلماً وعدواناً ... السلام على شيت صفوة الله المختار الأمين .)) [١]

وباب الفرج يعرف بمقام نوح عليه السلام . [٢]

وباب أمير المؤمنين هي مقام نوح عليه السلام . [٣]

ولا مانع أن يكون لنوح عدة مقامات في الكوفة ومسجدها ، ففيها صنع السفينة، ومنها فار التنور، وبها كان الطوفان العالمي .

وفي رواية أن الأسطوانة السابعة مقام أبراهيم وأن أمير المؤمنين كان يصلي إليها .

وفي رواية معتبرة أن الأسطوانة الخامسة كانت بقعة صلى فيها أبراهيم خليل الرحمن ، فقد قال الأمام الصادق (ع) لبعض أصحابه : ((صل عند الأسطوانة الخامسة ركعتين فأنها مصلى أبراهيم عليه السلام.)) [٤]

وفي عمدة الزائر لأبن طاووس بالذات :

---

(١) ظ: المفاتيح / ٣٩٠ وأنظر مصادره .
(٢) المرجع نفسه/ ٣٩٦ .
(٣) ظ:الضياء / ٥٦٢ .
(٤) ظ:المفاتيح / ٣٩٤ .

wadod.org

١. عند الأسطوانة الرابعة ، وهي مقام أبراهيم ، تقول فيما أزاد بعضهم : سلام على نوح في العالمين .

٢. وعن مولانا أمير المؤمنين أنه قال : أدخل الى جامع الكوفة من الباب الأعظم فأنه روضة من رياض الجنة .[١]

وقل ما ذكره أبن طاووس في مصباح الزائر :

((السلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وآله الطاهرين ، السلام على مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ورحمة الله وبركاته، وعلى مجالسه ومشاهده، ومقام حكمته ، وآثار آبائه : آدم ونوح وأبراهيم وأسماعيل.))[٢]

وهنا تصرح الزيارة بآثار آدم ونوح وأبراهيم وأسماعيل ، وآدم أبو البشر ، ونوح أبوهم الثاني ، ومقره النجف وعمله في الكوفة ، وأبراهيم في مقامه في المسجد ، وأسماعيل نجل أبراهيم ، وهو رابع الأنبياء العرب .

(٢) أدريس البابلي :

وهو أول من أعطى النبوة بعد آدم عليه السلام ، وكان أدريس أول من خط بالقلم ، وأول من نظر في علوم النجوم والحساب ، وحكماء اليونانيين يسمونه هرمس الحكيم ، وهو عظيم عندهم، وقد أنزلت — فيما قيل — عليه ثلاثون صحيفة ، وهو أول من جاهد في سبيل الله ، وقطع الثياب وخطها ، وهو وصي أبيه ، وقد توفي أدم عليه السلام في عهده ، فدعى أدريس قومه ووعظهم ، وأمرهم بطاعة الله تعالى ومعصية الشيطان ، والأبتعاد من ولد قابيل قاتل هابيل فلم يقبلوا منه .[٣]

وقد رفع الله أدريس إليه كما في التوراة ، وبنص من القرآن ((وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً))[٤]

وقد عد أدريس رابع الرسل السريانيين آدم وشيث ونوح كما في رواية لأبي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .[٥]

والمعروف أن شيث وصي آدم.

وبيت أدريس أو مقامه أو كلاهما في زواية الجنوب الغربي من مسجد سهيل اليوم وهو في الكوفة الغراء، ويقابله مقام ابراهيم عليه السلام في الشمال الغربي من المسجد ، فأن لم يكن ذلك موطنه ومسكنه كما عليه الأستقراء ، فأنه موطن اقامته أو عبادته في الأقل كما تلقى هذا الخلف عن السلف .

---

(١) ظ: الضياء / ٥٥٧ وأنظر مصادره .

(٢) ظ : ابن طاووس / مصباح الزائر / أعمال مسجد الكوفة.

(٣) ظ : ابن الأثير / الكامل في التاريخ ٣٤/١ .

(٤) سورة مريم / ٥٧ .

(٥) ظ: ابن الأثير / الكامل في التاريخ ٣٤/١ .

wadod.org

ولا مانع ان يكون أدريس كوفياً وطناً وسكنى ، لأدلة تأريخية ناصعة ، أبرزها أن ملك بيوراسب في عهد أدريس عند المؤرخين، وقد ظهر بيوراسب في أول سنة من ملك طهمورث ، فدعا الأول الى ملة الصابئين، بينما كان طهمورث مطيعاً لله تعالى ، قال أبن الكلبي: أول ملوك الأرض من بابل طهمورث، وكان لله مطيعا ، وكان ملكه أربعين سنة ، وهو في عهد أدريس عليه السلام .[١]

ونتيجة المقارنة بين أقوال المؤرخين يظهر بالضبط أن أدريس عليه السلام :

بابلي كوفي، وهو اول ولد بني آدم نبوة، كما عليه الاجماع وان شيثا كان وصياً، وأنه أول من علم الكتابة.

وأما أسم أدريس فهو أسم عربي مشتق من المدارسة ، وكثرة الدرس ، وهنا لنا أن نتساءل عن صيغة هذا الأسم العربية ، فهل يدل هذا على أن المنطقة كانت عربية ما قبل تدوين التاريخ . الله وحده هو العالم.

يقول أحد أعلام المعاصرين : ((وأعلم أنه ليس في تلك البقاع ـــ حاضرة الكوفة ـــ مسجد يضاهي مسجد السهلة فضلاً وشرفاً بعد مسجد الكوفة ، وهو بيت أدريس (ع) وأبراهيم (ع) ومنـــزل الخضر عليه السلام ومسكنه))[٢]

فعن الأمام جعفر بن محمد الصادق (ع) كما هو مرقوم في مسجد السهلة: أنه – أي المسجد – فيه مناخ الراكب ، وبيت أدريس النبي ...)) [٣]

(٣) نوح النبي عليه السلام :

النبي نوح عليه السلام أبو البشر الثاني ، فأبوه السابع آدم عليه السلام .[٤]

وهو أول أولي العزم، سادة الأنبياء، وأصحاب الرسالات العالمية، وقد أرسله الله الى البشر كافة بكتاب وشريعة ، فكتابه أول الكتب السماوية ، وشريعته أول الشرائع الآلهية[٥]

وتنتهي أنساب البشر اليه بدليل قوله تعالى ((وَجَعَلْنا ذُرِيَّتَهُ هُمُ الباقِينَ)) [٦]

وهوأبو الأنبياء جميعاً عدا آدم وأدريس لأنهما قبله بدليل قوله تعالى : ((وتركنا عليه في الأخرين)) [٧]

---

(١) ظ : المصدر نفسه ٣٥/١ .

(٢) ظ: المفاتيح / ٤٠٤ وأنظر مصادره

(٣) وسائل الشيعة ٥٣٣/٣

(٤) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٨٧/١

(٥) ظ: الطباطبائي / الميزان في تفسير القرآن ٢٥١/١٠

(٦) سورة الصافات /٧٧

(٧) سورة الصافات / ٧٨

wadod.org

وليس بالأمكان تحديد الحقبة الزمنية تأريخياً بين آدم ونوح بالضبط الصحيح، ألا أن بعض الروايات تشير اليها بحدود عشرة قرون ، فقد روي عن جماعة من السلف أن بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله حدث في القرن الذي بعث فيه نوح، وهوأول نبي بعث بالأنذار والدعاء الى التوحيد ، وهوقول أبن عباس وقتادة [١].

وكان نوح عليه السلام في عهد بيوراسب ، وبيوراسب في ملك طهمورث ، وطهمورث ملك البابلين ، وكان قومه يعبدون الأصنام ، فدعاهم نوح الى الله تسعمائة سنة وخمسين سنة ، كلما قضى قرن تبعهم قرن على ملة واحدة من الكفر .)) [٢]

وللقرن دلالتان في العد الزمني ، فتارة يطلق على الجيل من الناس كما عليه القرآن العظيم ، قال تعالى ((ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين .)) [٣]

وقال تعالى ((وكم أهلكنا قبلهم من قرن)) [٤]

وقال تعالى ((وَكَمْ أَهْلَكْنا مِن القُرون مِنْ بَعْدِ نُوح)) [٥]

وبعضهم يرى أن القرن مائة سنة ، فأن كان المراد بالقرن الجيل من البشر ، فبين آدم ونوح عشرة أجيال ، وأن كان المراد مائة سنة فبينهما ألف عام .

قال أبن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ((وقد أختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل اليهم نوح عليه السلام ، فمنهم من قال أنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكره الله تعالى من ركوب الفواحش، والكفر ، وشرب الخمور ، والأشتغال بالملاهي ، عن طاعة الله .

ومنهم من قال : أنهم كانوا أهل طاعته ، وبيوراسب أول من أظهر القول بمذهب الصابئة ، وتبعه على ذلك الذين أرسل اليهم نوح. والذي لا شك فيه أنهم أهل أوثان كما نطق به القرآن ، وهو مذهب طائفة من الصابئين فإن أصل مذهب الصابئين عبادة الروحانيين، وهم الملائكة لتقربهم الى الله زلفى ، فأنهم أعترفوا بصانع العالم ، وأنه قادر حكيم مقدس ألا أنهم قالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول الى معرفة جلال الله، وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة لديه، وهم الروحانيون، وحيث لم يعاينوا الروحانيين، (وهم الملائكة) تقربوا اليهم بالهياكل، وهي الكواكب السبعة السيارة ، لأنها مدبّر العالم عندهم ، ثم ذهبت طائفة منهم، وهم أصحاب الأشخاص حيث رأوا أن الهياكل تطلع وتغرب ، وترى ليلاً ولا ترى نهاراً —

(١) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١/ ٩٠

(٢) ظ: المصدر نفسه ١/ ٨٧ + أبن الأثير / الكامل ١/ ٣٦ .

(٣) سورة المؤمنون /٣

(٤) سورة مريم / ٧٤

(٥) سورة الأسراء / ١٧

wadod.org

الى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها الى الهياكل ، والهياكل الى الروحانيين، والروحانيين الى صانع العالم – وهو الله تعالى – فهذا كان أصل وضع الأصنام أولاً))[١]

وتواصى قوم نوح بعبادة الأصنام ((وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً .))[٢]

وأسماء هذه الأصنام من الأعلام الدالة على مسمياتها في كل الأصوات ، وتكتب كما هي لاتينياً في كل اللغات ، لأن الأعلام لا تترجم وأنما تبقى كما هي في الغالب. والذي يجلب الأنتباه حقاً أن أسماء هذه الأصنام جميعاً اسماء عربية ، ولها معانيها في اللغة باعتبارها أسماء عربية ،ونأتي عليها لغوياً بحسب تسلسلها في القرآن العظيم:

١- وُدّ، قال الراغب (ت ٥٠٢ هـ) في المفردات بالنص :

و ((وُدّ صنم سمي بذلك أما لمودتهم له ، أو لأعتقادهم أن بينه وبين الباري موّدة، تعالى الله عن القبائح.))[٣]

ويعني هذا : أن قوم نوح سموا هذا الصنم وداً باللغة العربية لمودتهم له ، أو لعقيدتهم أن بينه وبين الباري مودة ، تعالى عن ذلك علواً كبيرا.

فما معنى أن يسمي قوماً صنماً بأسم عربي ، له دلالته العربية ، وفيه معناه العربي، وهم لا يريدون ذلك ، ولا يعرفون العربية !!!

٢- سُواع : أسم مصدر عربي لا شك في هذا ، وقد ورد في اللغة : ((وجاءنا بعد سوع وسواع ، أي بعد هدوء .))[٤]

ولما كان سواع أسم صنم عند قوم نوح ، فما المانع أنهم كانوا يقصدونه ، ويريحون اليه لحظة الهدوء ليكون اللقاء في خلوه من الصفاء الروحي فيما يزعمون .

١. ويغوث أسم مصدر على صيغة المضارع من الغوث ، وقد جاء في معاجيم العربية : ((الغوث يقال في النصرة ، والغيث المطر ، واستغثته طلبت الغوث أو الغيث . فأغاثني من الغوث ، وغاثني من الغيث .))[٥]

وما المانع من قوم نوح أن يسموا بهذه الصيغة ، طلباً للغوث ، فهم يستجيرو ن به ، ويستغيثون عند الشدائد ، أو يطلبون به الغيث ، فهو شبيه عندهم بآله المطر فيما يزعمون .

---

(١) أبن الأثير / الكامل في التأريخ ٣٨/١ وأنظر الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٩٠/١

(٢) سورة نوح /٢٣

(٣) الراغب / المفردات / ٥١٧

(٤) المصدر نفسه / ٢٤٩

(٥) المصدر نفسه / ٣٦٧

wadod.org

١- يعوق ، وهو أسم صنم، وتصريفه: عاق يعوق عوقاً، يقال : عاقه وعوقه وأعتاقه، ومنه عوائق الدهر ، قال تعالى ((قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعوقِين مِنْكُم)) [١]

أي المثبطين الصارفين عن طرق الخير .

قال الراغب : ويعوق أسم صنم .[٢]

فالأسم عربي في مادته وأشتقاقه وتصريفه ودلالته ، فلعله كان يثبط قوم نوح عن العزم في الأمور لدى الأستقسام في الأزلام ، وأن لم يكن كذلك فهو في الأقل : مادة لغوية عربية الأصل.

٢. نسر أسم صنم في قوله تعالى ((نسراً)) والنسر طائر ، ومصدر نسر الطائر الشيء بمنسره : أي نقره[٣]

والنسر عادة ما يشمخ بأنفه الى السماء، وما يدرينا ، فلعل لهذا المعنى علاقة بتسميته والا فهو أسم عربي، ولا ندري انطباق ظروف التسمية عليه .

ومهما يكن من أمر ، فلا يخلو المقام بالنسبة لقوم نوح ، أما أن يريدوا ذلك من هذه الأسماء في معانيها بلغتهم الأصل، فهم عرب ، أو أنهم في الأقل يحسنون العربية ودلالتها وعلى الغرض الأول يتجلى أن الكوفة موطن العرب الأول بعد الخليفة بألف عام على الأكثر، أن لم يكن دون ذلك ، أذ لا بد من اللغة من النشوء حتى تترقى الى مرحلة الأستقرار والتداول . وعلى الفرض الثاني ، فأن اللغة العربية قديمه جداً بحيث يحسنها البابليون والسومريون ويسمون الأعلام بمسمياتها، وهو أيضاً أمر جدير بالأهمية ، وعلم ذلك كله عند الله تعالى، فأن القرآن الكريم لم يصرح بشيء من هذا ، وأن صرح بالأسماء العربية للأصنام، الا أن الأستنباط العلمي يقتضي ما قدمناه ، والله العالم والعاصم .

وهنا نؤكد أمرين :

الأول ، أن الأجماع قائم أن نوحاً كان مقره النجف ، وعمله في الكوفة ، كما عليه جملة من الروايات:

ففي الكافي بأسناده عن المفضل بن عمر ، وكان له عند الأمام الصادق (ع) في الكوفة أيام قدم على أبي العباس السفاح ، وأنتهى الى الكناسة في الكوفة ، وذكر صلب عمه زيد حتى أنتهى الى طاق الزياتين ، فنـــزل الأمام الصادق ، وقال للمفضل : ((أنزل فأن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي كان خطه آدم ،وأنا أكره أن أدخله راكباً . قلت فمن غيّره عن خطته ؟

---

(١) سورة الأحزاب/١٨.

(٢) الراغب / المفردات / ٣٥٤

(٣) المصدر نفسه / ٤٩٠

wadod.org

قال: أما أول ذلك فالطوفان في زمن نوح، ثم غيره كسرى والنعمان، ثم غيره بعد زياد، فقلت: وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح ؟

فقال لي : نعم يا مفضل ، وكان منـــزل نوح وقومه في قرية – على مترل من الفرات – مما يلي غرب الكوفة .

قال الأمام : وكان نوحٌ رجلاً نجاراً ، فجعله الله عز وجل نبياً وأنتجبه ، ونوح أول من عمل سفينة تجري على ظهر الماء .....قال : ولبث نوح في قومه ألف سنة ألا خمسين عاماً يدعوهم الى الله عز وجل ، فيهزأون به ويسخرون ، فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم بما حكاه تعالى ((وقال نوح ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا ألا فاجراً كفاراً))[١]

فأوحى الله عز وجل الى نوح أن أصنع السفينة وأوسعها وعجّل عملها ، فعمل نوح سفينته في مسجد الكوفة بيده ، فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها .....

وأشار الأمام الى موضع دار ، فقال : يا مفضل وههنا نصبت أصنام

قوم نوح : يغوث ويعوق ونسر .....))[٢]

أقول يبدو من هذه الرواية :

أ- قدم مسجد الكوفة، وأن أدم قد أختطه، وأن نوحاً قد أقام فيه، وعمل في وسطه السفينة ، وأن تغيرت معالمه ، وبعض أماكنه ، ومما يؤيده ما رواه أبو رزين الأسدي عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يتحدث عن نوح عليه السلام وعن قومه ، وعن صنعه للسفينة ، وهو في الكوفة قائلاً : وكان نجره في وسط مسجدكم ، ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع .[٣]

ب- قول الأمام الصادق (ع) وكان مترل نوح وقومه في قرية مما يلي غرب الكوفة، أقول أن المراد في غرب الكوفة فيما يبدو هو النجف الأشرف اليوم .

الأمر الثاني : أن أقدم نص لدينا عن الطوفان العالمي ، كان في ملحمة جلجامش يقول فيه ، وهو يتحدث عن الطوفان :

وأخبر أحد الآلهة جده ((نوح البابلي)) بذلك ، وتسميه الملحمة ((أو تو نبشتم)) وهو ترجمة سومرية للأسم – وطلب منه أن يعمل سفينة ، وينجو بنفسه بالقول الأتي :

قوض بيتك وأبن سفينة
وأترك ما تملك ، وأنقذ حياتك .
وتخل عن أملاكك ، وأنج بحياتك .

---

(١) سورة نوح / ٢٦-٢٧

(٢) ظ : الطباطبائي / الميزان في تفسير القران ١٠/ ٢٤٢ .

(٣) ظ : الطباطبائي / الميزان في تفسير القران ١٠/ ٢٤٢ .

wadod.org

وخذ معك الى السفينة بذرة كل مخلوق حي .

* * * * *

ارسل الموكل بالزوبعة مطراً مهلكاً في السماء
وتطلعت الى حالة الجو .
فأذا الجو مخيف لا يمكن النظر إليه.

* * * * *

أتى غيم أسود من الأفق البعيد .
وأرعد (أدد) عنان السماء ((أدد: إله الزوبعة والمطر عند السومريين))
وقلب النور الى ظلمة .
وكسرت الأرض مثل إناء.
وهبت العاصفة يوماً واحداً ، هبت سريعاً .

* * * * *

عصفت الرياح ستة أيام وست ليال، وانحسرت الأمطار .
وثارت العاصفة ، فغطى الطوفان الأرض .
ولما كان اليوم السابع ، خفت شدة العاصفة والطوفان .
وأستوت السفينة على جبل نصير
ومسك جبل نصير السفينة و لم يدعها تتحرك . [١]

وهنا تبدو عدة ظواهر علمية دقيقة :

١- أن ملحمة كلكامش تتحدث عن سكان العراق في فجر السلالات ، وكان نهاية هذه السلالات الفتح الأكدي لسومر المؤرخ بعام (٢٨٠٠) قبل الميلاد ، بينما أعتبره آ خرون في عام (٢٣٥٠) قبل الميلاد وعندما وحّد سر جون الأكدي بلاد الرافدين بقسميها الشمالي والجنوبي [٢]

٢- هناك عصران قد سلطا على العراق القديم : عصر ما قبل السلالات وعصر فجر السلالات ، وهو المعروف بعصر فجر السلالات السومرية الذي كان بعد الطوفان ، كما أن عصر ما قبل الطوفان يسمى بعصر ما قبل السلالات ، فالملحمة اذن تؤرخ طوفان نوح ، وبذلك تعتبر أقدم نص عن الطوفان قد يقدر بالألف الثالث قبل الميلاد لأنها حبرت وكتبت ونظمت قبل عصر المقبرة الملكية في أور، والتي يعود تاريخها الى حوالي ٢٦٠٠ سنة قبل الميلاد .

---

(١) ملحمة كلكماش / ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس (مجلة سومر / ج٦ /عدد/ ٢/ ١٥٤-١٦٣

(٢) ظ: ســتيون لويد / موجز تأريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن / ٣٨ ترجمة : طه باقر وبشير فرنسيس / لندن / جامعة أكسفورد / ١٩٤٣ + دليل المتحف العراقي / ١٧ / لسنة ١٩٦٠ م .

wadod.org

٣- ان القرآن العظيم قد أورد قصة الطوفان العالمي بما يوافق ما أشتملت عليه ملحمة جلجامش في كثير من المقاطع، وهذ ملحظ من ملاحظ أعجاز القرآن الكريم، اذ يتحدث عن الغيب بدقة متناهية ، تؤيدها اثار الحفريات السومرية .

أ — في طور صنع السفينة قال تعالى :

((فأوحينا اليه أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا فأذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك ألا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم مغرقون .)) [١]

ب ـــ في عوالم الطوفان بالأمطار الغزيرة ، وتفجير الأرض بالعيون قال تعالى ((ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فألتقى الماء على أمر قد قدر))[٢]

وهنا تلمح القدرة الآلهية الجبارة في فتح أبواب السماء بالماء المنهمر االطاغي ، وتفجير الأرض كل الأرض عيوناً فوارة عاتية ليلتقى ماء السماء المتوالي الى جنب ماء الأرض المتتابع لينقلب الكون الى محيط عات من الأمواج يصوره الله تعالى بالنسبة للسفينة ((..وهي تجري بهم في موج كالجبال ..))[٣]

وذلك تنفيذاً للأمر الرباني المقدر الجاري على هذا الهول المفزع .

ج- في نجاة نوح ومن معه من المؤمنين قال تعالى :

((فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين .)) [٤]

وقال تعالى مفصلاً للحالة ((ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الأخرين * سلام على نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين* أنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الأخرين .)) [٥]

د- في صدور الأمر الفوري في أنهاء عوالم المياه ومظاهر الطوفان ، وأستواء السفينة قال تعالى ((وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين.)) [٦]

٤- أن الملحمة تدور حوادثها حول حياة كلكامش ، وكلكامش هذا أحد ملوك سومر الأقدمين ، وقد ظهر أسمه في ثبت الملوك السومريين بأعتباره الملك الرابع الذي حكم بعد طوفان نوح عليه السلام في مدينة (أورك) وأورك تقوم أطلالها حالياً في المنطقة المعروفة بأسم (الوركاء) في جنوب العراق على

---

(١) سورة المومنون / ٢٧

(٢) سورة القمر/ ١١-١٢

(٣) سورة هود / ٤٢

(٤) سورة الشعراء /١١٩-١٢٠

(٥) سورة الصافات /٧٥-٨٢

(٦) سورة هود /٤٤

wadod.org

مسافة ٣٠ كيلو متراً شرقي مدينة السماوة (محافظة المثنى حالياً) وعلى بعد ١٢ كيلو متراً شمال شرقي ناحية الخضر ، وكانت تقع على نهر الفرات ، ويرجع تأريخها الى الألف الرابع قبل الميلاد . [١]

٥- أن هذا الطوفان قد شمل الكرة الأرضية بأعتبار أن اليابسة كانت ضمن نطاق محدود يحيط بمنطقة الطوفان، وبتعبير أخر أن الحياة البشرية والأحياء البحرية والمزارع النباتية، والثروة الحيوانية كانت ضمن منطقة الطوفان في العراق ، لهذا أمر نوح عليه السلام بحمل زوجية الكائنات البشرية والحيوانية والنباتية في سفينته لئلا تنقطع الحضارة على وجه الكرة الأرضية ، ولتعود من جديد الى الحياة بعد الطوفان الغامر الشامل ، وهذا لا يمنع أن تكون بعض المناطق اليابسة منتشرة على سطح الكرة الأرضية ، ولكنها غير مأهولة – لزوماً – بالحياة بدليل قوله تعالى ((وجعلنا ذريته هم الباقين.)) [٢]

فلا بقاء لسواهم لفناء كل الأشياء . ومن هنا نستنتج أن انطلاق حضارة العالم كان من الكوفة الغراء وأرض الرافدين .

٦- يذهب الدكتور أحمد نسيم سوسه بأنه من المرجح أن سفينة نوح عليه السلام قد أستقرت الى جانب المرتفعات الصحراوية في جوار النجف الأشرف، وهي المرتفعات المعروفة بأسم (النواويس) والنواويس قد وردت في كلام سيد الشهداء الأمام الحسين بن علي عليهما السلام بقوله ((كأني بأشلائي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء)) وأن النص الوارد في القرآن الكريم ((وأستوت على الجودي)) وهي كلمه عربية ، مما يؤيد أنها رست على مرتفع من صحراء جنوب شرقي الفرات عند حدود سلسلة مرتفعات النجف التي تعلو على سطح البحر بما يقارب (٦٥) متراً . [٣]

ويؤيده ما روي عن المفضل بن عمر عن الصادق (ع) في ((أستوت على الجودي)) قال : هو فرات الكوفة.[٤]

ومعنى هذا أن البشرية قد تدفقت في الكون من منطقة الكوفة ، ومما يؤيده مدفن نوح عليه السلام في النجف ، وهو اليوم ضمن ضريح أمير المؤمنين الأمام علي عليه السلام .

(٤)– هود وصالح عليهما السلام :

وهود عليه السلام أول عربي أرسل الى عاد، وذلك بعد نوح وقبل ابراهيم عليهما السلام .

وكانت مساكن عاد مابين السهول الشرقية لليمن وتسمى بالشحر وبين عمان وحضرموت بالأحقاف.[٥]

---

(١) ظ: سعد حاتم محمد مرزه / معجزة القرآن والطوفان /٩٤ وأنظر مصادره .

(٢) سورة الصافات /٧٧

(٣) ظ: أحمد نسيم سوسه / فيضانات بغداد ، عن مقال : موطن الطوفان وأستقرار فلك نوح / ٨٥-١٩٢ / ١٩٤٦ م

(٤) العياشي / تفسيره للآية .

(٥) ظ: أبن الأثير / الكامل في التأريخ ٤٨/١

wadod.org

والأحقاف رمال يقال لها رمل عالج ، والدهناء، ويبرين ما بين عمان وحضرموت .

وقد نص القرآن العظيم على الأسم بسورة الأحقاف التي سميت بأسم ديارهم ومنازلهم ، فقال تعالى ((واذكر أخا عاد أذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.))[١]

ويبدو من القرآن العظيم أنهم كانوا في نعمة وخير، ولهم أعمار طويلة وأجسام عظيمة. وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها ، وأبرز أصنامهم ثلاثة : ضر ، ضمور ، الهباء ، فأرسل الله هوداً يدعوهم الى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وخلع الأنداد، وترك ظلم الناس، فكذبوه وأذوه، وقالوا من أشد منا قوة ، و لم يؤمن ألا قليل.[٢]

فأصيبوا بعد الأنذار بعذاب الأستئصال بالريح العقيم ، سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً متوالية ، فلم تدع من عاد أحداً ألا هلك ، وأعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حضيرة ما يصيبهم الا ماتلين عليه الجلود، وتلتذ النفوس.[٣]

قال تعالى : ((فلما رآوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين.))[٤]

قال الطبرسي : وكان هود وصالح وشعيب وأسماعيل ونبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتكلمون بالعربية.[٥]

ويستخلص مما تقدم أن النبي هود عربي بدلالة صيغة أسمه العربية ، وقومه العرب ، ومنطقته العربية ، وأسماء الأصنام التي عبدت من دون الله عربية أيضاً .

وأن هذا الجيل القديم من العرب يسمى عاداً الأولى .

قال تعالى ((وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى .))[٦]

واما ثمود فهم الجيل الثاني من العرب بعد عاد الأولى ، وكانت مساكنهم من البلاد العربية في الحجر ، وهو بين الحجاز والشام، وقد كثروا بعد عاد، واستخلفوا في الأرض ، وكانوا في سعة من معايشهم . فكفروا بالله وأنعمه ، فبعث الله اليهم نبيه صالحاً عليه السلام .[٧]

---

(١) سورة الأحقاف / ٢١

(٢) ظ: أبن الأثير / الكامل ١ / ٤٨ .

(٣) ظ: الطبرسي / مجمع البيان ٢/ ٤٣٩ .

(٤) سورة الأحقاف / ٢٤-٢٥ ز

(٥) الطبرسي/ مجمع البيان ٢/ ٤٣٩ .

(٦) سورة النجم / ٥٠-٥١ .

(٧) ظ: أبن الأثير/ الكامل في التأريخ ١/ ٥٠

wadod.org

قال تعالى : ((والى ثمود آخاهم صالحاً قال ياقوم أعبدو الله مالكم من إله غيره هوأنشأكم من الأرض وأستعمركم فيها فأستغفروه ثم توبوا أليه أن ربي قريب مجيب.))[١]

وكانت ثمود تعبد الأصنام ، وتعمر طويلاً ، وتتخذ من الجبال بيوتاً ، كما جاء في القرآن الكريم ((وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين .))[٢]

وذكرهم القرآن بمواطنهم ومساكنهم وأرسال الرسل اليهم، وعاقبة أمرهم . قال تعالى:

((ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وأتيناهم أياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين))[٣]

وكانوا عكفاً على أصنامهم ، فدعاهم صالح الى عبادة الله وحده ، ونبذ الوثنيه فقابلوه بما قصه الله تعالى من أمرهم :

((قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب * قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وأتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته فما تزيدونني غير تخسير))[٤]

ويبدو أنهم قد طلبوا اليه المعجزة ، بأخراج ناقة جوفاء عشراء من صخرة بعينها ، فأتى الصخرة وصلى ودعا ربه ، فأذا بها تتمخض وتخرج من وسطها الناقة وهم ينظرون ، فكانت آية كما تحدث القرآن ((ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب))[٥]

ويبدوا أنهم تواصوا على عقرها ، فأخذهم عذاب الأستئصال كما قال تعالى ((فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين أمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ أن ربك هو القوي العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا أن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود))[٦]

وبعد عذاب الأستئصال نجى الله صالحاً والذين أمنوا برحمة منه .

والذي يثير الأنتباه حقاً بعد أستئصال عاد وثمود هو تواتر وجود ضريح هود وصالح في ظهر الكوفة بطريق الأستقراء العلمي منذ عصر الأئمة عليهم السلام وعهود الصحابة والتابعين والذين من بعدهم

---

(١) سورة هود / ٦١

(٢) سورة الشعراء / ١٤٩ .

(٣) سورة الحجر / ٨٠ – ٨٣

(٤) سورة هود / ٦٣

(٥) سورة هود / ٦٤

(٦) سورة هود / ٦٥ – ٦٨

wadod.org

وحتى اليوم فقد ورد في وصية أمير المؤمنين (ع) لولده الامام الحسن(ع) قال: ((وادفنوني في قبر أخي هود))[١].

وفي رواية اخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: ((واذا مت فادفنوني في هذا الظهر في قبر أخوي هود وصالح))[٢]، وهما الآن في ضريح ذي قبتين تستقبلان وادي السلام، ويبتعدان عن ضريح الأمام علي عليه السلام حوالي ثلاثمائة متراً فحسب، في بناء شامخ يقصد ويزار، وكان أخر تجديدهما على يد السيد بحر العلوم قدس سره (ت:١٢١٢هـ) وما يدرينا أن هوداً وصالحاً ، قد هجر كل بلده وموطنه الأصلي، بعد استئصال قومه، وأستوطنا منطقة عربية، وهي ظهر الكوفة حتى أتاهما الأجل، ودفنا في واديها المقدس، أو لخصوصية أخرى، كون الكوفة أرض الرسالات السماوية ومهبط الوحي على من سبقهم من الرسل . الله هو العالم.

٥– ابراهيم الخليل عليه السلام :

وهو الثاني من الأنبياء أولي العزم ، وكان مولد ابراهيم عليه السلام ببابل من أرض السواد وقال بعضهم ومولده بالسواد بناحية كوثي.[٣]

وكوثي أو كوثى أحدى قرى الكوفة[٤]

وكان مولده في عهد نمرود بن كوش بن كنعان وملكه في كوثي[٥]

وعن هشام بن محمد ، قال : بلغنا – والله أعلم – أن أبراهيم خليل الرحمن ولد في زمان نمروذ ، وأنه صاحبه الذي أراد أحراقه[٦].

وعن الأمام جعفر بن محمد الصادق (ع) يقول : أن أبراهيم كان مولده بكوثار ، وضبطها الجزري كوثى ، قريه من أعمال الكوفة[٧].

وهذا أحد القولين عند أبي الفداء بن كثير[٨].

وكذلك هو عند أبن الأثير[٩].

---

(١) الحر العاملي/ الوسائل ٣٠٩/١٠

(٢) الطوسي/ التهذيب ١٢/٢ + الوسائل ٣٠٨/١٠+ابن طاووس/ فرحة الغري/ ٢٨.

(٣) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١/ ١١٩

(٤) ظ: مراصد الأطلاع / مادة : كوثي

(٥) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١ /١١٩

(٦) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١ /١١٩

(٧) ظ: الطباطبائي / الميزان في تفسير القرآن ٧/ ٢٢٩

(٨) أبن كثير / قصص الأنبياء / ١٨٨

(٩) ظ: أبن الأثير / الكامل في التأريخ ١ / ٥٣

wadod.org

وجاء في مراصد الأطلاع : وكوثى بالعراق في موضعين :

كوثى الطريق وكوثى ربا ، وبها مشهد أبراهيم الخليل (ع) ، وهما قريبان ، وبينهما تلول رماد ، ويقال أنها رماد النار التي أوقدها نمرود لأحراقه [١].

ومهما يكن من أمر فأن أبراهيم قد ولد في بابل أو الكوفة أو أحدى قرى الكوفة ، والدلائل على ذلك كثيره سيتحدث عنها البحث . وفجأ أبراهيم في هذه المنطقة بقومه من البابليين أن عبادتهم على نوعين من الوثنية والأشراك ، فقبيل من قومه يعبد الأصنام ، والقبيل الأخر يعبد الكواكب وقد يتداخل الأمران في عبادة التماثيل التي تحكي صورة الكواكب كالزهرة والقمر والشمس فيعبدونها ، ويشركون بالله سواه .

وقد حاجج أبراهيم هؤلاء وهؤلاء مستدلاً على بطلان عبادتهم، وسخر بهما جميعاً، ودعا الى التوحيد، وقد جاء ذكر ذلك في صور أسلوبية متعددة في القرآن العظيم، نشير الى أبرزها .

قال تعالى : ((واذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين)) [٢]

فهو يستنكر على آزر وقومه عبادته للأصنام، إلا أن آزر بقي مصراً على ذلك وألح عليه إبراهيم وعاود عليه القول، فأبى آزر الأيمان وبقي على إشراكه، وأوعد إبراهيم بالرجم، وطلب مهاجرته طويلاً ، قال تعالى : ((وأذكر في الكتاب إبراهيم أنه كان صديقاً نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا * يا أبت إني قد جائني من العلم ما لم يأتك فأتبعني اهدك صراطاً سويا * يا ابت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا))[٣]

فقد حاجج إبراهيم اباه هنا حجاجاً مفصلاً فيه من اللين والأدب والأنذار الشيء الكثير، فهو يوقر أباه في الخطاب، ويدعوه الى نبذ عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئا وهويخبره بأن جاءه من العلم ما لم يأته، ويطلب اليه إتباعه ويحذره عبادة الشيطان لأنه عصى الرحمن ، وهو يخاف عليه من عذاب الله بموالاته للشيطان ، أو يمسه هذا العذاب فيكون وليا للشيطان فيرد عليه أبوه بزجر وتهديد ومقاطعة، فيقابل أباه بأن لا خطر عليه منه وأنه سيستغفر له الله تعالى .

---

(١) ظ: مراصد الأطلاع / مادة : كوثي

(٢) الأنعام / ٧٤-٧٥.

(٣) سورة مريم / ٤١ – ٤٧.

wadod.org

وكما حاج أباه وقومه في عبادة الأصنام، فقد حاجج قومه أيضاً بعبادة الكواكب، وقد اراه الله عز وجل ملكوت السموات والأرض ، وأستيقن ذلك بنفسه ، وبذلك يكون قد استلهم دلالة توحيد الله تعالى بدلالة خلقه البديع في المشاهد المتعدده لهما .

وكان نظر إبراهيم عليه السلام في ملكوت السماوات والأرض نظر من يهتدي الى التوحيد حتماً ، لأن تدبره في ذلك يقضي بتوجه نفسه لله وحده لا شريك له ، أذ مدبر هذا الكون باللازم لا يقبل إلا الوحدانية ، فليس لغيره تعالى تدبير هذا الكون ، وليس للمحدثات كالكواكب والشمس والقمر بأعتبارها تتغير وتتحول وتغيب وتطلع وتافل ، وهكذا أية صفة للخلق لأنها مخلوقه حادثه يعود أمر جريانها وتدبيرها وتقديرها لله وحده .

قال الأمام الباقر عليه السلام ((كشط الله له عن الأرضين حتى رآهن وما تحتهن ، وعن السماوات حتى رآهن وما فيهن من الملائكة وحملة العرش .))[١]

فرؤية إبراهيم لهذا الملكوت رؤية أضافة خلقها وابداعها وتنظيمها وأدارة شؤونها الى الله عز وجل، وانتساب كل الأشياء في هذا المضمار الى الله تعالى أمر كما قال الطباطبائي: ((لا يقبل الشركة، ويختص به سبحانه وحده، فالربوبية التي هي الملك والتدبير لا تقبل تفويضاً ولا تمليكاً أنتقالياً .)) [٢]

لهذا فإنه أقام الدليل على بطلان عبادة الكواكب لحدوثها ،والخالق لا يكون محدثاً، ولتغير أحوالها في نفي الأستقرار وعدم الثبات، وذلك من صفات المخلوقين، قال تعالى حاكياً عن الحالة لديه :

((فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم أني بريء مما تشركون * اني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين))[٣]

فابراهيم عليه السلام رأى الكوكب ورأى القمر ورأى الشمس فتأكد أنها محدثات تأفل وتتقلب فقطع بخلقها، والمخلوق لا يكون خالقاً، فتوجّه بوجهه لله رب العالمين حنيفاً مسلماً موحداً .

وكان هذا كله لأنه أري ملكوت السموات والأرض ، فتفرع على هذا الأصل نظره الى الكوكب والقمر والشمس فرآها مخلوقة مسيرة.

ويبدو ان إبراهيم حينما تحرر من السرب فجأ برؤية أحد الكواكب السبعة ، وهو الزهرة في روايات أهل البيت ، وهوالذي يؤيده الأعتبار العلمي ، لأن الزهرة يضيق مدارها فلا تبتعد عن الشمس ألا قليلاً ،

---

(١) الطبرسي / مجمع البيان ٣ / ٣٢٢ .
(٢) الطباطبائي / الميزان ٧ / ١٧١ .
(٣) سورة الأنعام / ٧٦-٧٩ .

wadod.org

فهي كالتابعه لها ، وسواها لا يرى الا قليلاً أو شاذاً أو قد لا يرى كالمريخ وزحل والمشتري وعطارد، فلم يبق الا الزهرة وهي قد تتقدم الشمس فتسمى عند الناس نجمة الصبح ، وقد تتصاقب عند طلوع القمر في النصف الثاني من الشهر ، وهذه الخصوصية للزهرة من بين الكواكب السبعة بحسب نظامها وسيرها، على أن الزهرة أجمل الكواكب الدرية وأبهجها وأضوءها وهي تجلب النظر إليها عند الظلام الحالك. والقمر والشمس مذكوران بعدها .

وعلى هذا فقد رأى الزهرة وقومه يتنسكون بواجب عبادتها من خضوع وصلاة وقربان، فلما أفلت رأى القمر بازغاً ، فلما أفل بزغت الشمس فلما أفلت ، تبرأ من الجميع ومما يعبد قومه .

وقول أبراهيم في الكواكب هذه ((هذا ربي)) ليس من القطع والبناء ، وأنما هو أفتراض أمر للنظر في الأثار التي تثبته وتؤيده في حالتي الترقب والأنتظار ، فكأنه قد عد نفسه كأحد أبناء قومه مجاراة لهم ، ليبطل بذلك دعواهم ويثبت فسادها.[١]

وهذا حق لأنه كان على يقين من أمره ، فقد جاءه من العلم ما يؤكد توحيده الخالص بأراءة ملكوت السماوات والأرض ، لذلك فقد أبطل ربوبية هذه الكواكب أما لأفولها أو لعدم حبها ،أو هما معاً ، لأن ربوبية الله تعالى أنما تتجلى بالحب الألاهي من قبل العباد .

وهناك مؤشر بارز في حياة ابراهيم تتجلى فيه البطولة والشهامة وتتراءى فيه القوة والشجاعة ،كما يتمثل به الأيمان المطلق والتوكل على الله ،ذلك هو تحطيم أصنام القوم ، وهوليس أمراً أعتيادياً، ولا حادثة هامشية، بل هو في الصميم من اعتقاد القوم، ولك أن تتصور رجلاً بمفرده لا ناصر له ولا مؤازر ، يقاتل شعباً بأكمله في أعز شيء لديه ، وهو العبادة أي كان جنسها ، فقد خرج قوم إبراهيم لعيد لهم خارج البلد ، وتخلف ابراهيم عنهم ، فراغ اليها ضرباً باليمين فجعلها جذاذاً ألا كبيرهم ، قال تعالى عن لسانه :

((وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً ألا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فآتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فأسئلوهم ان كانوا ينطقون * فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون * قالوا حرّقوه وأنصروا ألهتكم أن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين * ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين))[٢]

---

(١) ظ: الطباطبائي / الميزان / ١٧٣ وما بعدها بأختصار وتصرف .

(٢) سورة الأنبياء / ٥٧-٧١

wadod.org

فهو قد هجم على الأصنام وجعلها جذاذاً ، وهم يستنكرون ذلك ، ويلقون بالتبعة على ابراهيم، وهم يأتون به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، ويستفهمون عن الحدث ، فيعرض لهم بأن كبيرهم فعل ذلك وطلب سؤاله وأستنطاقه، واعترفوا بظلمهم ونكسوا على رؤوسهم، لأن أصنامهم لا تنطق، فأحتج عليهم مستنكراً ومستهجناً عبادة ما لا ينفع ولا يضر ، وتأفف منهم ومما يعبدون ، وذهبوا لأحراقه ونصرة آلهتهم ، فكانت النار برداً وسلاماً عليه ، ونجاه الله ولوطاً الى الأرض المقدسة .

وتحدثت صورة الصافات عن هذا الحدث في مشهد مقارب فيه تفصيل آخر ، فقال تعالى فيما أقتص عن أبراهيم :

((فنظر نظرة في النجوم * فقال اني سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين * فأقبلوا إليه يزفّون * قال أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعلمون * قالوا أبنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين * وقال أني ذاهب الى ربي سيهدين.))[1]

ونقف عند هذا النص القرآني على عدة ظواهر :

الأولى : أن حديثه بأنه سقيم على صلة بنظره في النجوم ، وربما كان ذلك من قبيل تعيين الوقت الذي يعاوده فيه مرض ما، فأعتل لذلك تعبيراً عن عدم استطاعته الخروج مع قومه الى عيدهم ، أو أنه على سبيل التعريض فأنه حينما ينظر في النجوم فأنما يتفكر في قدرة الله وبديع صنعه نظرة الموحد لا نظرة المنجمين الذين يربطون علل الأشياء ومستقبلها بالكواكب. وربما قيل إن إبراهيم قد وصف نفسه بالسقم مستقبلاً فكل أمريء يمرض والله العالم .

الثانية: ان إبراهيم قد أسرع الى آلهتهم المزعومة، وكانوا يضعون لها طعاماً، فكلمها بأكله مع علمه بأنها جماد لا يأكل، وحجر لا ينطق، فخاطبها مخاطبة من يعقل ليؤاخذها مؤاخذة العقلاء، رداً على زعم من يرجع إليها في التدبير، وأدارة شؤون الكون .

الثالثة : أنه مال على آلهتهم بحركة سريعة ، وعزم ثابت ، ضرباً باليمين ، سواء أكان اليمين اليد اليمنى أم كان القوة الضاربة .

الرابعة : ان قوم إبراهيم قد أسرعوا أليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم مستنكرين عليه ، ألا أنه بعد قبضهم عليه كان هو المستنكر عياناً ، فحاججهم أستفهاماً وأنكاراً انهم يعبدون ما ينحتون ، والخالق يخلق ولا يُخلق ، فسفه عبادتهم الواهنة ، وأستعلى عليهم بأن الله قد خلقهم وما يعبدون ، توبيخاً لهم على ما أحدثوه من البدع والأضاليل .

---

(١) سورة الصافات / ٨٨-٩٩

wadod.org

الخامسة : تصميم قومه على الأنتصار لأصنامهم ، والأنتقام من ابراهيم ، وذلك بالأحراق بالنار ، فرد الله كيدهم في نحورهم وجعلهم الأسفلين ، وكتب نصره لأبراهيم بجعل النار برداً وسلاماً عليه .

السادسة : ختمت الأيات بالحديث عن هجرة ابراهيم الى الأرض المقدسة .ويبدو من القرآن العظيم أن ابراهيم حينما نجاه الله من النار ، قد أستدعى من قبل نمرود ليحاج ابراهيم في ربه ، قال تعالى :

((ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الملك أذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فأن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين.))[١]

وقد كان على الذي أعطاه الله الملك – أن كان الضمير يعود على نمرود – أن يشكر الله على منته وفضله ، لا أن يحاج أبراهيم في ربه . وكانت حجة ابراهيم أن بدهه أن ربه يحيي ويميت ، ويريد بذلك أن الله تعالى قد أوجد الموت والحياة وخلقهما وأبدعهما على حد قوله تعالى :

((تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير* الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور.))[٢]

ولكن نمرود غالطه في خط المحاججة ، فقال : أنا أحيي وأميت ، فأنتقل بالموت والحياة من أصلها في الأيجاد والأبداع ، الى معنى أخر لاعلاقة له بالمحاججة تمويهاً على الحاضرين اذ أمر كما في الروايات أن يحضر له أثنان ممن يستحق القتل، فقتل أحدهما، وأطلق الثاني، وأدعى أنه يحيي ويميت .

ويبدو أن المناخ الأجتماعي في مجلس الملك لم يكن ليساعد ابراهيم على الأدلاء بحجته هذه حسبما أراد، أو أنه وجد الحاضرين في المجلس قد أنطلت عليهم هذه الدعوى من الملك، أو أنهم لم يكونوا بالمستوى المطلوب لحجاج عقلي منطقي يستدعي التفكير والنظر، والتفريق بينما هو حقيقي وبين ما هو مجازي ، أو أنه أراد حجة لا جدال فيها ولا رد فيخصم الملك بأختصار الطريق بين يديه، وكسب قصب السبق دون مراء فقال ابراهيم ((فأن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر)) أذ لا يستطيع الملك ولا من بمجلسه أن يدفعوا هذه الحجة لأنها غير قابلة للنقاش، فألقم حجراً، وأنتصر إبراهيم والله لا يهدي القوم الظالمين))

ويبدو من خلال هذه المحاججة أن نمروذ كان يعد نفسه بمصاف الآلهة ، بل هو الآله لا سواه ، وأنه رب ابراهيم ورب الحاضرين ، لأن ابراهيم قال ((ربي الذي يحيي ويميت)) فقال الملك على الفور ((أنا أحيي وأميت)) دون العطف كأن يقول ((وأنا أحيي وأميت)) لأن مقتضى العطف هنا أن يشارك الله في

---

(١) سورة البقرة / ٢٥٨

(٢) سورة الملك / ١-٢

wadod.org

الربوبية ، وهويذهب الى أبعد من هذا بأرادة التفرد بالربوبية كما قال فرعون بما حكاه الله تعالى ((وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من آله غيري ..))[١]

وكما حكى عنه ((فقال أنا ربكم الأعلى .))[٢]

بقي الأشاره الى ملحظ مهم في قضية ابراهيم مع أبيه آزر في قوله تعالى ((وأذ قال ابراهيم لأبيه آزر ...))[٣]

فقد أختلف المفسرون في آزر هذا ، فقال قسم منهم أنه أبوه الصلبي كما عن الحسن البصري والسدي والضحاك ، في حين يكاد يجمع المؤرخون أن أباه تارخ . ومنهم من قال أن آزر جد أبراهيم لآمه ، أو أنه عمه ، لا أبوه ولا جده ، وقد روي عن النبي (ص) :أنه قال :

((لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين الى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية .))[٤]

فلو كان في آبائه مشرك والعياذ بالله — لم يوصف أحد منهم بالطهارة — لأن القرآن يقول:

((أنما المشركون نجس .....))[٥]

ويؤيده ما روي عن الأمام الصادق (ع) متحدثاً عن مهنة آزر ، قال :

((كان آزر عم أبراهيم منجماً لنمرود كان لا يصدر ألا عن رأيه .))[٦]

والذي يدل عليه القرآن العظيم أن ((آزر)) لم يكن والده الصلبي ، فحينما زجر آزر ابراهيم على دعوته له لنبذ عبادة الأصنام ((قال سلام عليك سأستغفر لك ربي أنه كان بي حفيا.))[٧]

فقد سلم عليه بما يقتضي منتهى الأدب، ووعده بالأستغفار رغبة في أيمانه ونبذه للأصنام، وتوحيده الله تعالى ، وقد وفى أبراهيم بهذا الوعد ، فدعا له ، قال تعالى حاكياً: ((وأغفر لآبي أنه كان من الضالين))[٨]

وكان هذا الأستغفار عن موعدة سابقة ، فلما تبين لأبراهيم كفره وعداؤه لله تعالى ، تبرأ منه ، بما حكاه الله تعالى في محكم كتابه العزيز : ((وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أياه فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه أن ابراهيم لأواه حليم .))[٩]

---

(١) سورة القصص / ٣٨

(٢) النازعات / ٢٤

(٣) سورة الأنعام / ٧٤

(٤) ظ: الطبرسي / مجمع البيان ٢ / ٣٢٢

(٥) سورة التوبة /٢٨ .

(٦) ظ: الطباطبائي / الميزان في تفسير القرآن ٧ / ٢٠٧ .

(٧) سورة مريم / ٤٧

(٨) سورة الشعراء / ٨٦

(٩) سورة التوبة / ١١٤

wadod.org

وهذه الأحداث جرت لأبراهيم عليه السلام وهوفي سواد بابل أو الكوفة الغراء ، أيام الدعوة الى التوحيد ، وتسفيه عبادة الكواكب والأصنام ، وهو بعد لم يهاجر الى الأرض المقدسة ، ثم هاجر الى الشام ومصر، وقد رزق الذرية أستجابة لدعائه ((رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم .))[١]

وسافر الى مكة المكرمة قبل تمصيرها ، وأنزل بها من ذريته بواد غير ذي زرع ، وبنيت الكعبة في البيت الحرام ، وتأهلت المنطقة بالسكان ، وكل ذلك يستدعي الكثير من السنين وفي نهاية كل هذا المطاف العريض قال بما أقتص خبره القرآن الكريم : ((الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وأسحاق أن ربي لسميع الدعاء * رب أجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي وتقبل دعاء * ربنا أغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .))[٢]

والدعاء في الآية الأخيرة دليل قاطع أن آزر ليس آباه الصلبي الحقيقي ، لأنه تبرأ سابقاً من آزر ، وتدل أن أباه الصلبي هو والده الحقيقي ، وانما أطلق على آزر لفظ الأب لأستعمال القرآن والعرب ذلك في العم والجد ، قال تعالى : ((أم كنتم شهداء أذ حضر يعقوب الموت أذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد آلهك وآله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون .))[٣]

فابراهيم جد يعقوب واسماعيل عم يعقوب وقد سمّى القرآن كلا منهما أباً ، وجمع اليهم آباه الحقيقي وهوأسحاق .

أذن : آزر ليس الأب الحقيقي لأبراهيم بدليل دعائه لوالده الحقيقي في آخريات أيامه ، وكان قد تبرأ من آزر ، فكيف يدعو له .

وقد أجمع المؤرخون أن آباه تارخ أو تارح بالخاء المعجمة أو الحاء المهملة .[٤]

وهاجر ابراهيم الى الأرض المقدسة مع من آمن معه ، وفي طليعتهم زوجته ولوط عليه السلام ، قال تعالى :

((فآمن له لوط وقال أني مهاجر الى ربي أنه هو العزيز الحكيم))[٥]

وقال تعالى ((ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين .))[٦]

والذي يدل عليه السياق القرآني من حياة ابراهيم في سواد الكوفة وأرض بابل : أنه عاش في بدأ حياته الأولى بمناخ منعزل عن حياة قومه الأجتماعية، كأن يكون في مغارة أو سرب أو نفق، حذراً عليه من

---

(١) سورة الصافات / ١٠٠ – ١٠١

(٢) سورة ابراهيم / ٣٩-٤١

(٣) سورة البقرة / ١٣٣

(٤) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١/ ١١٩ + أبن الأثير / الكامل في التأريخ ١/ ٥٣ .

(٥) سورة العنكبوت / ٢٦

(٦) سورة الأنبياء / ٧١ .

wadod.org

القتل من قبل نمروذ، فلما فارق ذلك وأصطدم بالحياة العامة، بدأ بالدعوة الى التوحيد مبتدأ بآزر الذي وجده يعبد الأصنام ، فحاججه فيها وألزمه الحجة ، ثم حاج قومه فيها ، وأنكر عليهم عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، ثم كسر أصنامهم، ثم عاين أستنادهم لعبادة مماثله للكواكب، والقمر، والشمس، فأفترض ربوبيتها معرّضاً من أجل تفنيد الدعوى ، فأسقطها جميعاً ، وتوجه بوجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، فلا رب سواه، ولا معبود الاه، وأمده الله تعالى بأراءته ملكوت السماوات والأرض، فعرف البدء والتكوين والمعاد، وأنتقم منه قومه فأججت له النار العظيمة ، فنجاه الله منها بمعجزة تثير الدهشة ، وحاجه نمروذ في ربه ، فأفلجه ابراهيم ، ولم يستجب له ألا أقل من القليل ، فهاجر بهم الى الأرض التي باركها الله للعالمين ، وهكذا يتجلى لدى المقارنة في البحث أن ابراهيم وذريته كوفيون بابليون عراقيون ، وأن من هاجر معه من المؤمنين برسالته السماوية كذلك، ومن قبله آدم وادريس وذريتهما، ونوح وذريته وهم الباقون بعد الطوفان العالمي، وبذلك تتلخص بعد النتائج الحتمية :

١- أن الكوفة الغراء ، وبابل الفيحاء ، هما الأصل الأول في تكوين البشر وأنتشاره في العالم من خلال هذه البقعة المباركة .

٢- أن اللغة العربية الشريفة قد أنطلقت بأصالتها الكبرى من هذه الديار الشريفة .

٣- أن الرسالات السماوية العالمية لكل من أدريس ونوح وابراهيم كان مقرها أرض السواد من العراق ، وفي الكوفة بالذات كما تضافرت الروايات بذلك.

٤- أن الحضارة العالمية قد بدأت من هنا بأبي البشر الثاني نوح عليه السلام ، وقد قام المؤمنون وذريته من بعده بأرساء قواعد التحضر في مظاهر عديدة ، وأثار لا تقبل الشك من ههنا أبرزها ما أبقاه السومريون والبابليون والأكديون والأشوريون والعرب القدامى .

٥- أن هذه البقعة فيما يروى ويؤكد بالأستقراء أرض مباركة من قبل رب العالمين ، لا سيما وهي تحتضن جثمان آدم ونوح وهود وصالح وذي الكفل وأخيراً تشرفت بجثمان أمير المؤمنين، وسيد الوصيين مولانا الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم كان وادي السلام مجتمع أرواح المؤمنين وكان الدفن بهذه البقعة منجياً من عذاب البرزخ، كما تدل على ذلك الروايات المعتبرة التي لا تحصى كثرة .

بعد هذا الجزء من النتائج تقلبت الظروف في العالم ، وبدأت الحروب في أقطار الدنيا ، والكوفة تضمحل وتتجدد ، ونورها يخبو ويتألق ، والحضارة من حولها في الحيرة ، والملوك قربها في المناذرة ، والخورنق والسدير في ظلالها قرب الذكوات ، حتى عادة حاضرة للجيش الأسلامي سنة تمصيرها في الأسلام عام ١٧ من الهجرة ، فقطنها العرب ، وقسمت أرضها الى أسباع في نظام قبلي يسكنه أتباع العشائر والقبائل متقاربين متجاورين ، ثم حول ذلك الى أرباع ، وكل ربع من الكوفة يضم منتجعا من القبائل العربية في لحمتها ووشائجها الى أن عادت أحد العراقين مع البصرة .

wadod.org

٦- الكوفة عاصمة الخلافة الاسلامية:

وقد إكتسبت الكوفة الشرف الشامخ حينما أتخذها أمير المؤمنين عليه السلام عاصمة للخلافة الأسلامية في الثاني عشر من رجب سنةستة وثلاثين من الهجرة [١]

ويوافق ذلك الرابع من كانون الثاني عام : ٦٥٨ من الميلاد . وهو التأريخ الذي تبركت به جامعة الكوفة فجعلته يومها المتجدد في كل عام فكان ذلك مدعاة تقدير ، ومثار أعجاب في الدوائر العلمية .

ولأختيار أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة مقراً للخلافة والامامة أسباب تراثية وايمانية وعسكرية وسياسية ، لعل منها ما نعتقده :

١- كون الكوفة مقراً لرسالات سماوية سابقة ، ومهبطاً لجملة من الأنبياء العالميين ، وأثراً من أثار توحيد الله تعالى .

٢- كانت الدولة الأسلامية مترامية الأطراف في مشرقها ومغربها، وكانت الكوفة مركزاً وسطياً لتلك الدولة دون شك ، فمشرق الدولة الأسلامية يتعدى الى حدود أفغانستان وباكستان ويتاخم الصين ، ومغرب الدولة الأسلامية يشمل الشام ومصر وما والاهما ، وجنوب الدولة يحتضن الحجاز واليمن ، فلم يبق ألا الكوفة دارة تجتمع حولها هذه الأقاليم المتباعدة .

٣- كان أمير المؤمنين يعد العدة بعد معركة الجمل استعداداً لمعركة صفين، وصفين تقع فعلاً ضمن محافظة دير الزور من الأراضي السورية، فهي اذن على مقربة من أعماله وكوره في الأنبار وهيت اذا أستقر في الكوفة ، فله المدد وله العدد لا سيما أن الكوفة مربض أنصاره وأصحابه وأوليائه من العرب تمده بالرجال والسلاح والنصرة .

٤- أما كون الأمام علي عليه السلام قد أراد أن يبتعد بالمدينة المنورة عن الحروب والفتن فلا أصل له، فقبله رسول الله (ص)، قد قاد حوالي ثمانين معركة وغزوَة وسرية من المدينة المنورة، فهلا أبتعد بها عن هذه الحروب ؟

ومهما يكن من أمر فقد توسطت الكوفة الدولة الأسلامية ، وأنطلق منها الأشعاع الأيماني والفكري في عهد الأمام علي (ع) ليشمل الجزيرة العربية والحواضر الأسلامية ، وأحتضنت (بيت المال) للمسلمين، ليصرف في عدالة صارمة ، وسواسية حقة بين الناس على سواء، وليمّون الجيش الأسلامي بما يحتاج أليه من الميرة ورباط الخيل والسلاح، وليستقطب الدولة في ظل ذلك شعاع العدالة الأجتماعية المفقودة، فلا أرستقراطية لقريش على من سواها ، ولا فضل لعربي على أعجمي ألا بالتقوى .

---

(١) ط: المسعودي / مروج الذهب ٢/ ٣٧٢

wadod.org

وَعَمُر السواد من خلال سياسة الأمام علي عليه السلام الأقتصادية ، فكان الخصب والثمر والغلال والألبان ، وكانت الأنعام والأبقار والمواشي ، وكان الربيع الذي أنتهى بالجوع وشيعه في خلافة ما أكتملت سنواتها الخمس لما تخللها من الحروب والفتن ذلك لأرادته حمل الناس على المحجة البيضاء.

وفوق هذا كله فقد أخذ نفسه بشدة ما بعدها شدة ، فلبس ما خشن وأكل ما جشب ، وهو القائل : ((ألا وان لكل مأموم أماماً يقتدي به، ويستضي بنور علمه ، ألا وان أمامكم قد أكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعمه بقرصيه ، ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع وأجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنـــزت من دنياكم تبراً، ولا أدخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً))[١]

وكانت همته نفسه ورياضتها بالأصعب ، لتأمن يوم القيامة ، قال ((وأنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق))[٢]

وهو عليه السلام قادر كل القدرة على تخير الأطعمة والأشربة، والتأنق بالرياش والمعاش، ولكنه يجانب هواه، ويريد مواساة الناس، بكل ما يستطيع وهو القائل ((ولو شئت لأهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جشعي الى تخير الأطعمة – ولعل بالحجاز واليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع – أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى أو أكون كما قال القائل :

وحســـبك عـــاراً أن تبيـــت ببطنـــة وحـــولك أكبـــاد تحن الى القـــد

أأقنع من نفسي بأن يقال : هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش))[٣]

ثم يخاطب الدنيا خطاب الناقد البصير والزاهد الخبير : ((إليك عني يا دنيا ، فحبلك على غاربك، قد أنسللتُ من مخالبك وأفلتُ من حبائلك وأجتنبت الذهاب في ملاحضك))[٤]

وهذا غيض من فيض هذا الباب المتسع حتى لا يستبد الطغاة بالغنى، ولا يزري بالفقير فقره.

بلى قد أنزلت السماء بركاتها وأخرجت الأرض ثمراتها وكان الكوفيون يرون في أمير المؤمنين بطل الأستقلال السياسي للعراق ، وعملاق الفكر الأسلامي في الحياة حتى ذهب شهيد عظمته بمثل هذه الأيام.

---

(١) أبن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٠٥

(٢) المصدر نفسه١٦/ ٢٠٨

(٣) المصدر نفسه ١٦ / ٢٨٧

(٤) المصدر نفسه ١٦ / ٢٩٢

wadod.org

فأنطوى ذلك الحلم الرائع ، وأسدل الستار على ذلك الأمل المشرق، وبحق ما وصفه به ضرار بن ضمرة حينما دخل على معاوية فقال له صف لي علياً، فقال :

((كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه، يعجبه من الطعام ما خشن، ومن اللباس ما قصر وكان والله يجيبنا اذا دعوناه ويعطينا أذا سألناه ، وكنا والله – على تقريبه لنا ، وقربه منا – لا نكلمه هيبة له، ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا، يبسم عن ثغره كاللولؤ المنظوم يعظم اهل الدين، ويرحم المساكين ويطعم في المزغبة ، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة ، يكسو العريان ، وينصر اللهفان ، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته ، وكأني به وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وهو في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول:

يا دنيا غري غيري ، ألي تعرضتي أم ألي تشوفت ؟

هيهات هيهات !! الا حان حينك، قد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك عمرك قصير، وعيشك حقير وخطرك يسير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق))[1]

وليكن هذا أخر حديثنا ، والحمد لله رب العالمين.

(١) المسعودي / مروج الذهب ٢ / ٤٢١ .

wadod.org

المصادر والمراجع

١- خير ما نبدأ به : **القرآن الكريم**

٢- أبن الأثير / أبو الحسن / علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـــ)
الكامل في التأريخ / تحقيق نخبة من العلماء دار الكتاب العربي / بيروت ١٩٦٧ م

٣- أحمد نسيم سوسة (الدكتور)
فيضانات بغداد / بغداد / ١٩٤٦ م

٤- إبن بطوطة / أبو عبد الله / محمد بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـــ)
رحلة أبن بطوطة = تحفة النظار في غرائب الأمصار
طبع المكتبة التجارية لمصطفى محمد / القاهرة / د.ث

٥- جعفر باقر محبوبة
ماضي النجف وحاضرها / الطبعة الأولى / مطبعة العرفان / صيدا / ١٣٥٣ هـــ

٦-أبن أبي الحديد / عز الدين / عبد الحميد بن هبة الله المدائني ((ت ٦٥٦ هـــ))
شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين الامام علي عليه السلام
تحقيق / محمد أبو الفضل ابراهيم / ج ١٦ / دار أحياء الكتب العربية / القاهرة / ١٩٦٢ م

٧- دليل المتحف العراقي لسنة ١٩٦٠ م . بغداد / ١٩٦١ م

٨-الراغب الأصبهاني / الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢ هـــ)
المفردات في غريب القرآن
تر : محمد سيد كيلاني / مطبعة مصطفى البابي / القاهرة / ١٩٦١

٩- ستوين لويد
موجز تأريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن
ترجمة : طه باقر وبشير فرنسيس / جامعة أكسفورد / لندن / ١٩٤٣ م

١٠- سعد حاتم مرزة (المهندس)
معجزة القرآن والطوفان / مطبعة الحوادث / بغداد / ١٩٩٥ م

١١- صفي الدين بن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـــ)
مراصد الأطلاع على أسماء الأماكن والبقاع / طبعة بولاق. القاهرة.

wadod.org

١٢- ابن طاووس / رضي الدين / علي بن موسى بن جعفر (ت ٦٦٤هـ)، مصباح الزائر / المطبعة الحيدرية / النجف.

١٣- أبن طاووس / غياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ت ٦٩٣هـ)
فرحة الغري/ المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٧٧هـ

١٤- الطبرسي / أبو علي / الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)
مجمع البيان في تفسير القرآن / مطبعة العرفان / صيدا / ١٣٣٣هـ

١٥- الطبري / أبو جعفر / محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ
تأريخ الأمم والملوك
دار القاموس الحديث / طبعه مصورة / بيروت / د.ت

١٦- الطوسي / أبو جعفر / محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، تهذيب الأحكام / طبعة ايران

١٧- عباس محمد رضا القمي النجفي (ت ١٣٥٩ هـ)
مفاتيح الجنان / تعريب : محمد رضا النوري النجفي
دار الجيل / بيروت/ د.ت

١٨- أبن كثير / أبو الفداء / اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)
قصص الأنبياء / منشورات مكتبة النهضة / بغداد / ١٩٨٣م

١٩- الكليني / أبو جعفر / محمد بن يعقوب بن أسحق الرازي البغدادي (ت ٣٢٩هـ)
أصول الكافي
دار الكتب الأسلامية / طهران / ١٣٧٨ هـ

٢٠- الكليني / أبو جعفر / نفسه فيما سبق /
الفروع من الكافي تحقيق الغفاري والأملي / المطبعة الأسلامية / طهران / ١٣٨٨ هـ

٢١- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت / ١٩٧١م

٢٢- محمد صالح الجوهرجي، ضياء الصالحين / مطبعة الأداب / النجف الأشرف / ١٣٨٥ه

٢٣- المسعودي / أبو الحسن / علي بن الحسين المسعودي الحلي البغدادي (ت ٣٤٦ هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر
دار الأندلس للطباعة والنشر / بيروت ١٩٦٥ م

٢٤- ملحمة كلكامش / حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد، نص شعري سومري / ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس . مجلة سومر / ٦ / ٢/ بغداد .

wadod.org

الكـــوفـة

رحلة في تاريخية الاسم

الأستاذ: معن حمدان علي

للعراق تاريخ قديم، ضارب الجذور في عمق الزمن، يمتد إلى آلاف من السنين، وقد مرّت به أدوار حضارية كثيرة. ولا بدّ أن تترك كل واحدة منها آثاراً، وهذا ما حصل، وكان أبرز ما تركت تلك الحضارات آثاراً شاهدة تدل عليها، فضلاً عن أسماء مدن ومناطق بقي أغلبها حياً ليومنا هذا، وقسم من تلك الأسماء ناله التحريف والتصحيف بمرور الزمن، ولو تضافرت جهود علماء الآثار واللغة لفكت الكثير من طلاسم التاريخ، مثلما غيرت المكتشفات الأثرية الكثير من الأمور التي كانت مسلّمة، لا يرقى إليها شك، ولا تحوم حولها ريبة.

فالآثار المكتشفة في العراق أثبتت أن اسم بغداد كان معروفاً منذ العصر البابلي، حيث جاء اسم (بغدادا) و(بغدادو) في وثيقة قانونية تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، في زمن الملك الشهير حمورابي. وآخر تلك المكتشفات كانت بقايا المسنّاة الموجودة على ضفة دجلة اليمنى، والمعروفة شعبياً باسم قصر البرامكة، وهي مشيدة بطابوق عليه ختم الملك البابلي نبوخذ نصّر (٦٠٥ ـ ٥٥٨) ق.م، مما يدل على قدم هذا الموضع[١].

ولا بدّ أن تكون هذه المكتشفات قاطعة جهيزة كل «مجتهد» في تفسير معنى اسم بغداد، بعد أن ذهبوا بشأنه مذاهب شتى، ابتداءً من أنها تعني (بستاد داد) من (باغ) و(داد)، أو أن الاسم من أصل هندوأوروبي ويعني عطية، وأخيراً وليس آخراً أنها عربية الأصل متكونة من مقطع (بغ) من (البغبغة) وهو صوت من الهدير، و(داذ) نبات له

---

(١) راجع مجلة الرواد البغدادية، العدد السابع، السنة ٢٠٠١ عن الشواهد التاريخية في مقال الأستاذ سالم الألوسي (بغداد ما قبل المنصور).

wadod.org

ثمار تشبه الشعير، يخمّر ويشرب، لتكون بغداد (هدير نبيذ الداذي) أو (هدير الداذي)!!؟

والأمثلة كثيرة في أصول أسماء المدن العراقية، فقد ورد في تقويم سرجون الأكدي (٢٣٧٠ ـ ٢٣١٦) ق.م؛ اسم (كيرخوآنجا) المعروفة الآن باسم (كركوك)، أو (أرباأيلو) أي مدينة الأربعة آلهة، التي عربت في العصر الإسلامي إلى أربل، واستقرت أخيراً بأسم أربيل..

وبما أن (الكوفة) اسم لا يمتلك عمقاً تاريخياً مثل بغداد وأربيل، فهنا يحق لي القول: إن من أخطأ فله أجر واحد!!! لذلك سنحاول الإلمام بتاريخ هذا الاسم والموضع.

* * * * *

إن أقدم اسم لموضع الكوفة ورد في مدونة المؤرخ اليوناني في القرن الرابع ميلادي أميانوس مرشيليتوس، الذي رافق الامبراطور جوليان المعروف تاريخياً بالجاحد أو المرتد عام (٣٦٣م) في حملته لمحاربة الفرس الساسانيين؛ هو (فولوجيسيا) أو (فولوغشيا) من أولغاشية أو فولغاشية نسبة إلى الملك الفرثي ولغاش أو (فولغاش) الأول (٥٢ ـ ٨٠)م، ويرجح أنها موضع الكوفة الحالية[١].

والظاهر أن هذه المنطقة تطورت بعد القرن الرابع الميلادي، وقد بنيت فيها مدن وقرى ودساكر، «وكانت الحيرة عاصمة اللخميين... ومع ذلك لم تكن سوى ثغر من ثغور البادية، ومحل لتبادل البضائع بين العمال الإيرانيين ومأموريهم من جهة، وكبار أصحاب الإبل ـ البدو ـ من الجهة الأخرى بصورة مستمرة، كما أنها كانت تجمع بين أهل المدن والقرى الآراميين الشديدي التنصر، وبين العشائر الصغيرة الأليفة من رعاة الغنم التي اعتادت التردد هناك»[٢].

ووصف الشابشتي هذه المنطقة بعد القرن الهجري الأول ـ القرن السابع الميلادي ـ قائلاً: «وهذه الديارات بالنجف بظاهر الكوفة، وهو أول الحيرة. وهي قباب وقصور تسمى ديارات الأساقف، وبحضرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر (المنصور) وعن شماله (قصر) السّدير، وبين ذلك

(١) العراق في القرن الرابع للميلاد، ترجمة فؤاد جميل، الموسوعة الصغيرة، بغداد ١٩٩٨، ص ٣٧، الأستاذ سالم الألوسي، موجز دليل آثار الكوفة، بغداد ١٩٦٥ ص ٥.

(٢) لويس ماسينيون، خطط الكوفة، ترجمة تقي محمد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، النجف ١٩٧٩، ص ٢٨.

wadod.org

الديارات»[١].

وهذا ما يفسر أسماء المنطقة التي وردت كلها بالآرامية، فالحيرة التي تبعد أميالاً من الكوفة؛ أرامية النجار من حرتا أو حيرتو، ومعناها المعسكر أو الحصن أو الحاضر، وبحيرة النجف بأسم فرثا؛ أي البثق، وعاقولا؛ الواقعة جنوب مدينة المسيب، ومعناها العوجة أو فتلة الطريق[٢]، وإليها ينسب دير العاقول الوارد ذكره في كتب التراث، وأما اسم موضعه الآن فهو الدير، وهي المنطقة التي شهدت مقتل شاعر العرب الخالد المتنبي.

يحدثنا عبد الوهاب العزام الذي زار المنطقة سنة ١٩٢٦، قائلاً: «وقد سألت أعراباً نازلين هناك من قبيلة شمر عن أرض أخرى تسمى الدير في هذه الناحية؛ فنفوا هذا، وسألت عن أسماء العاقول وقنّى والصافية، أتعرف اليوم هي أو ما يقرب منها فنفوا هذا، وسألت عن أسماء العاقول وقنّى والصافية، أتعرف اليوم هي، أو ما يقرب منها؟ فنفوا جازمين»[٣].

وقد ورد في «تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية»[٤] أن الكوفة كان يقال لها: كوبا أو كوبة، وهي كلمة آرامية تعني الشوكة، ونبات العاقول ذلك النبات الشائك المعروف في العراق[٥]. وهناك من يرى أن عاقولا كانت تطلق على منطقة تشمل حتى الكوفة[٦].

ولدى علماء اللغة العرب أن معنى «الكوبة: الطبل الصغير المخصر، وهو أعجمي، وقال محمد بن كثير؛ الكوبة: النرد بلغة اليمن، وفي الحديث: إن الله يغفر لكل ذنب إلا صاحب عرطبة أو كوبة»[٧]، وهذا الحديث يتعارض مع قوله تعالى: ﴿إن

---

(١) الشابشتي الديارات، تحقيق كوركيس عواد ط٢، بغداد، ١٣٨٦ ـ ١٩٦٦، ص ٢٣٦.

(٢) أوجين منا، دليل الراغبين إلى لغة الآراميين، الموصل ١٩٠٠، يوسف غنيمة، الحيرة، بغداد ١٩٣٦، ص ١٠.

(٣) عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، ط١، بغداد ١٣٥٥ـ ١٩٣٦، ص ٢٦٢.

(٤) مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩ ص ١٩، عن يعقوب سركيس، مباحث عراقية، بغداد ٩٨١: ٣/ ١٤٠.

(٥) جبرائيل القرداحي، اللباب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٨٧م، ص ٥٥٥، عن مباحث عراقية ٣/ ١٤٠.

(٦) يعقوب سركيس، مباحث عراقية ٣/ ١٣٩.

(٧) الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب، ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩، ص ٢٨٢، ٣٤٣.

wadod.org

الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾ [النساء: ١١٦] صدق الله العظيم، وكذب المدلسون.

وجاء أدّي شير ناقلاً ذلك بقوله: «الكوبة: الطبل الصغير المخضر [بضاد معجمة] فارسية كوبة»[١]، وهو نقل غير صحيح وغير دقيق وللأسف.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة من تطور اسم الكوفة؛ وهي تمصير العرب لها. والآن السؤال المطروح هو كيف سميت باسم الكوفة؟

في كتاب «فضل الكوفة وفضل أهلها» لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن العلوي الحسني الكوفي، وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، ما يلي:

«لما نزل المسلمون المدائن أجموها وكرهوها ولم توافقهم، فكتب بذلك سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: إن العرب لا تصلح إلا حيث تصلح الإبل [!!؟] فارتد إليها منزلاً. قال الهيثم: فبعث سعد برادة يرتادون فانتهوا إلى كويفة ابن عمر. قال الهيثم: فقلت لابن عياش: أين كويفة ابن عمر؟ قال: بزيقيا»[٢]، علماً أن بزيقيا كلمة آرامية تعني الباشق أو الباز[٣].

* أما الكوفة عند اللغويين العرب فهي تعني: ـ الرملة الحمراء المجتمعة. ـ أو الرملة المستديرة، وكل رملة تخالطها حصباء. ـ أو ما كانت لاجتماع الناس بها، أي من فعل: تكوَّفُوا. ـ أو أصلها كوفان (بضم الكاف) وهو جبيل صغير فسهلوه واختطوا عليه. ـ وهو الأمر المُستدبر. ـ والدغل من القصب والخشب. ـ أو أصلها كوفان (بفتح الكاف وتشديد الواو) وتعني العز والمنعة لأن جبل ساتيدما محيط بها. ـ أو من الكيف؛ وهو القطع، لأن كسرى أبرديز أقطعها لابنه بهرام. ـ أو من الكوفان أي المشقة والتعب. ـ أو هي من العيب[٤].

وهنا أتساءل وأقول: ما الجامع بين هذه المعاني المختلفة؟ ألا يحق لي القول: إن أصل كلمة الكوفة هي كوبة الآرامية، وقد سمعها العرب فحرفوها أو سمعوها مصحفة؟ وخصوصاً أن كل الشواهد التي ينقلها علماء اللغة العرب في المعاجم قبلت بعد تمصير الكوفة.

---

(١) أدي شير، الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩.

(٢) الشيخ محمد حسن آل يس، مجلة البلاغ البغدادية، العدد الثالث ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩.

(٣) أوجين منا، دليل الراغبين ٦٠.

(٤) الزبيدي، تاج العروس، تحقيق مصطفى حجازي ٢٤/ ٣٤٠، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ٤/ ٤٩٠، كامل سلمان الجبوري، تاريخ الكوفة ١/ ١٦.

wadod.org

الحركة الفكرية في الكوفة

في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور هادي حسين حمَود

ما كادت حركات التحرير والفتوح العربية الإسلامية أن تنتهي من تحرير العراق من السيطرة الفارسية الساسانية، حتى نشأت الأمصار الجديدة (البصرة والكوفة) وازدهرت فيها حياة المدن التي انطوت على علاقات اجتماعية جديدة، ونشاط اقتصادي مزدهر، وقيام حركة فكرية ذات جوانب متنوعة. فقد أحدث استقرار العرب في العراق تطوراً هاماً، ونقلة نوعية في حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية. والحقيقة فإن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد أدرك طبيعة التطورات التي سوف تطرأ على حياة العرب في الأمصار الجديدة، وما سوف يعقبها من تغيرات، الأمر الذي أدى به إلى أن يولي عناية خاصة لتلك الأمصار، كما أدرك في الوقت نفسه ما تحتاجه تلك المجتمعات من تنظيم اقتصادي وإداري، ومن ثقافة ومعرفة، ففيما يتعلق بالجانب الحضاري والعمراني أسست المدن الجديدة حسب شروط خاصة، كان منها: أن تكون ملائمة لسكنى العرب الوافدين حديثاً من جزيرة العرب أولاً، وإبقائهم أمة حربية مستعدة لدفع العدوان ثانياً. وحاول الخليفة عمر بن الخطاب أن يجعل تلك المدن عربية في تكوينها الاجتماعي وأدرك في الوقت نفسه أهمية النقاوة عند العرب فأبعدهم عن الأعاجم.

في سنة ١٧هـ ـ بنيت مدينة الكوفة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، فأصبحت دار هجرة للعرب الوافدين، فاختط سعد بن أبي وقاص المدينة، وأسكنها الناس.

اهتم الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بالكوفة اهتماماً زائداً، ففي تلك المدينة (وجوه الناس) كما يقول الخليفة عمر[١]. وهؤلاء، كما يقول (رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يحمون ثغورهم ويمدون الأمصار)[٢].

---

(١) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، ج٦، (بيروت ١٩٥٧) ص٥.

(٢) أيضا ٥/٦.

wadod.org

لقد نزل تلك المدينة (ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر)[١]، فتكون في ذلك المصر مجتمع كان لا بد من توجيه العناية والرعاية له. وتعهده بالعلم والمعرفة، لذلك أرسل الخليفة عمر إلى تلك المدينة مع الوالي (عمار بن ياسر) جماعة من الصحابة، كان منهم عبيد بن عازب وقرظة بن كعب الأنصاري[٢]، ويبدو أن المهمة التي أنيطت بأولئك القوم كانت تعليم الناس القرآن الكريم، والتفقه في الدين. ويروي قرظة بن كعب الأنصاري أنه لما خرج وجماعته من المدينة المنورة متوجهين إلى الكوفة ودعهم عمر بنفسه وقال لهم: (تدرون لم شيعتكم؟ فقلنا: نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، واقلوا الرواية عن رسول الله...)[٣]. وعندما أرسل الخليفة عمر (عماراً بن ياسر) والياً على الكوفة، ومعه القارئ الصحابي (عبد الله بن مسعود) كتب إلى أهل الكوفة (أما بعد فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وابن مسعود معلماً ووزيراً، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم، وإنهما من النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بابن أم عبد (عبد الله بن مسعود) على نفسي..)[٤]. وفي رواية أن الخليفة عمر أرسل (مجمع بن جارية) إلى الكوفة أيضاً لغرض تعليم الناس القرآن[٥] وهو من مشاهير من جمع القرآن في عهد الرسول (ص).

هذا وعلى الرغم من انشغال الإمام علي بن أبي طالب (رض) بمشاكله الداخلية، فقد أولى العلم والمعرفة والتفقه في الدين عناية ورعاية كبيرة حين نزوله الكوفة، واتخاذها عاصمة للدولة العربية الإسلامية في عهده. وقد كانت للإمام علي آراء هامة في العلم والمعرفة، فطالما تحدث عن قيمة العلم، وأشاد بالعلماء ومن قوله لكميل بن زياد النخعي: (.. الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم في سبيل نجاة.. وهمج رعاع.. يا كميل: العلم يحرسك. وأنت تحرس المال. والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق.. يا كميل محبة العلم دين يدان به، يكسب الإنسان الطاعة في حياته. وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.. يا

---

(١) أيضاً ٦/٩.
(٢) أيضاً ٦/١٧.
(٣) أيضاً ٦/٧.
(٤) أيضاً ٣/٢٥٥.
(٥) ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣ (القاهرة ١٣٢٨هـ)، ص٣٦٦.

wadod.org

كميل مات خزّان العلم وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر..)[١] . ومن خطبة له بالكوفة يحث فيها أهلها أن يكونوا كبعض مشاهير العلماء قوله: (يا أهل الكوفة أتعجزون أن تكونوا مثل السلماني والهمداني..)[٢]. وعن (علباء بن أحمر) أن علياً خاطب أهل الكوفة فقال: (من يشتري علماً بدرهم؟ فاشترى الحارث الأعور[أحد أهل الكوفة] صحفاً بدرهم. ثم جاء بها علياً فكتب له علماً كثيراً. ثم إن علياً خطب الناس بعد ذلك فقال: يا أهل الكوفة غلبكم نصف رجل..)[٣].

وقد حرص رحمه الله على أن لا يدع شيئاً عنده من العلم إلا علمه لأصحابه من القراء. فقد قال يوماً: (اجمعوا لي القراء. فاجتمعوا في رحبة المسجد. فقال لهم: إني أوشك أن أفارقكم ثم جعل يسألهم ويقول لهم: ما تقولون في كذا؟ ويقولون له: يا أمير المؤمنين ما كذا وكذا؟ فيخبرهم حتى ارتفع النهار وتصدعوا ونفد ما عندهم..)[٤]. وكان للإمام علي تلاميذه في الكوفة سنتحدث عنهم فيما بعد.

دور الكوفة في تثبيت التقاليد العلمية العربية الإسلامية:

في العهود الإسلامية الأولى وضعت التقاليد العربية الإسلامية، التي كان لها دورها الهام في تطور العلوم والمعارف والتي أصبحت، فيما بعد، من مستلزمات الثقافة العربية الإسلامية، ويعود لعلماء العراق، ومنهم أهل الكوفة، الفضل في تثبيت العلم بواسطة التدوين بعد أن كان يجري شفاهاً على ألسنة الناس. كما إن لأولئك العلماء الدور المميز في إنشاء الحلقات العلمية التدريسية في المساجد، وكذلك دورهم في تثبيت التقليد الإسلامي المعروف بـ(الرحلة في طلب العلم). أما التدوين فكان لابد منه لتثبيت العلوم والمعارف، وذلك بتدوين تلك العلوم وحفظها من الضياع، بعد أن تطور المجتمع العربي واستقر العرب في الأمصار. ومن ثم ازدهرت الحركة العلمية فيها.

لقد أحجم العرب في البداية عن تدوين الحديث النبوي لما قد يختلط منه بالقرآن الكريم. واختلف العلماء في التدوين، وروت أحاديث عن الرسول (ص) أشارت على عدم إباحة التدوين، إلا أن كثرة العلوم والمعارف قد جعلت من التدوين مسألة حضارية لابد منها. فقد

---

(١) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، ج٢، تحقيق أحمد أمين وجماعته (القاهرة ١٩٦٩) ص٢١٢.
(٢) ابن سعد ٦/٩٣.
(٣) أيضاً ٦/١٦٨.
(٤) ابن بدران، عبد القادر بن أحمد، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٦ (بيروت ١٩٧٩) ص٣٠٨.

wadod.org

دون الناس بعضاً من الأحاديث النبوية في عهد الرسول (ص). فقد كان لعبد الله بن مسعود، رأس مدرسة الكوفة، مسند[١]. ويبدو أنه كتبه بيده[٢]، وكان لتلميذه الشهير عبيدة السلماني كتب محاها قبل موته وقال: (.. أخشى أن يليها أحد بعدي فيضعها في غير موضعها)[٣]. وكان عامر الشعبي (ت١٠٤هـ) من أشهر الداعين في الكوفة إلى تدوين العلم خوفاً عليه من الضياع، وقد قال لأحدهم يوماً: (لا تدعن شيئا من العلم إلا كتبته، فهو خير لك من موضعه في الصحيفة، وإنّك تحتاج إليه يوماً)[٤]. وكان (سعيد بن جبير) قارئ الكوفة وفقيهها الشهير يكتب العلم عن (عبد الله بن عباس) وكان يمليه على تلاميذه الذين كانوا يحضرون إليه ومعهم أدوات الكتابة[٥].

وقد أسهم الكوفيون في الرحلات العلمية في طلب العلم منذ العهود المبكرة الأولى يقول (زر بن حبيش) قارئ الكوفة: (وفدت في خلافة عثمان بن عفان وإنما حملني على الوفادة لقيا أبي بن كعب وأصحاب رسول الله...)[٦]. ويذكر الشعبي أنه لم يكن أحد من أصحاب عبد الله (ابن مسعود) أطلب للعلم في أفق في الآفاق من مسروق)[٧] تلميذ عبد الله بن مسعود.

وكان لأهل الكوفة دورهم في قيام الحركة الفكرية الأولى، فقد اشتهر من علمائهم أبو اسحاق السبيعي وسليمان بن مهران الأعمش[٨]. يقول محمد بن سيرين (ت١١٠هـ) قارئ البصرة: (قدمت الكوفة وعلماؤها خمسة: عبيدة وعلقمة ومسروق وشريح والحارث الأعور)[٩].

نشوء مدرسة الكوفة الإقرائية التعليمية وتطورها:

نزل عبد الله بن مسعود بالكوفة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وبذلك تكونت مدرسة الكوفة الإقرائية التعليمية التي استمرت تأثيراتها الفكرية إلى أمد بعيد، وكانت تلك

---

(١) ابن حجر الإصابة ١٧٨/١.
(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان (المدينة المنورة ١٩٦٢) ص٨٦.
(٣) ابن سعد ٩٤/٦.
(٤) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تقييد العلم، تحقيق يوسف العش ط٢/١٩٧٤، ص١٠٠.
(٥) ابن سعد ٢٦٦/٦.
(٦) الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق نور الدين عتر، (بيروت ١٩٧٥) ص٩٢.
(٧) الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، تحقيق محمد عجاج الخطيب (بيروت ١٩٧١) ص٢٢٨.
(٨) أيضا ص٦١٤ - ٦١٥.
(٩) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، ج٦، تحقيق عبد العزيزي مصطفى المراغي (القاهرة ١٩٤٧) ص٢٢٨.

wadod.org

المدرسة (قائمة على الرواية والتلقين)[١].

كان عبد الله بن مسعود صحابياً قديماً أسلم قبل الهجرة، واشترك في معارك الإسلام الأولى، وكان شديد الصلة بالرسول (ص)، وقد مدح الرسول قراءة ابن مسعود للقرآن الكريم ووصفه بأنه (.. عليم معلم)[٢]. كما كانت لابن مسعود مكانة جليلة عند الخليفة عمر بن الخطاب، وقد وصف الإمام علي بن أبي طالب ابن مسعود بأنه (علم القرآن وعلم السنة ثم انتهى وكفى به علماً)[٣].

نزل ابن مسعود بالكوفة فكان يخطب كل خميس، ويدع خطبة الجمعة للأمير وهو عمار ابن ياسر[٤]. ويبدو أن خطب ابن مسعود كانت إرشاداً ووعظ، فيذكر أبو وائل القارئ (كان عبد الله يذكر الناس كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم)[٥].

كان ابن مسعود يجمع بين القراءة والفتيا، ويذكر مسروق بن الأجدع تلميذ عبد الله أن ابن مسعود كان يقرئ الناس القرآن في المسجد (ثم يجلس بعد ذلك يفتي الناس)[٦]. وكان (إذا اجتمع إخوانه نشروا المصحف فقرؤوا وفسر لهم)[٧].

أما طريقته في التدريس والرواية فكان (يتحرى في الأداء ويشدد في الرواية. ويزجر تلاميذه عن التهاون في ضبط الألفاظ)[٨]، كما كان (يقل من الرواية للحديث ويتورع في الألفاظ.. وكان تلاميذه لا يفضلون عليه أحداً من الصحابة)[٩].

كان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) واثقاً مما كان يقوم به عبد الله في الكوفة، فيروي علقمة بن قيس تلميذ ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى عمر فقال (جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت فيها رجلاً يملي المصاحف عن ظهر قلبه) فغضب عمر غضباً شديداً ولكنه لما علم أن ذلك الرجل كان ابن مسعود مدحه ورضي عن عمله وقال (والله ما أعلم بقي من الناس أحد أحق بذلك منه)[١٠].

---

(١) المخرومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو (القاهرة ١٩٥٨) ص٢٦.
(٢) ابن العماد، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١ (بيروت، بدون تاريخ) ص٤٠.
(٣) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، صفة الصفوة، ج١، تحقيق محمود فاخوري (حلب ١٩٦٩) ص٤٠١.
(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج١، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة ١٩٥٩) ص١٦٤.
(٥) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ج١ (القاهرة ١٢٧٩) ص٣٧.
(٦) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج٢ (القاهرة ١٩٣٣) ص٢٩٤.
(٧) أيضاً ٤٥٩/١.
(٨) الذهبي، أحمد بن علي، تذكرة الحفاظ، ج١ (بيروت، بدون تاريخ) ص١٤.
(٩) أيضاً ١٤/١.
(١٠) ابن الجوزي، صفة الصفوة ٣٩٨/١.

wadod.org

كون ابن مسعود في الكوفة مدرسة إقرائية تعليمية فقهية، كان لها طلاب حفظوا أصولها، وراعوا برامجها. يقول علي بن المديني، أحد مؤرخي الفقه المشهورين: (... لم يكن أحد من أصحاب رسول الله له أصحاب يقولون بقوله في الفقه إلا ثلاثة: عبد الله بن مسعود وزيد [بن ثابت] وعبد الله بن عباس، فإنهم كان لكل واحد منهم أصحاب يقولون بقوله ويفتون الناس، فكان أصحاب عبد الله الذين يقرؤون ويفتون بقوله ويذهبون مذهبه: علقمة والأسود ومسروقاً وعبيدة السلماني وعمر بن شرحبيل والحارث بن قيس ستة هكذا عدهم إبراهيم النخعي [القارئ والفقيه الكوفي]. وكان أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله ومذهبه إبراهيم والشعبي)[١]. والحق أن أولئك الستة كانوا عماد مدرسة عبد الله بن مسعود، وهم (الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم..)[٢]. ويقول محمد بن سيرين فقيه البصرة: (أدركت الناس بالكوفة وهم يقدمون خمسة، من بدأ بالحارث ثنى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ثم علقمة لا شك فيه..)[٣]. وكان علقمة والأسود وعبيدة والحارث (أعلم الناس بعبد الله..)[٤]. وقد ألقى عامر الشعبي [الفقيه والقارئ الكوفي] مزيداً من الأضواء على تلاميذ عبد الله ومدى معرفتهم به، وعلاقتهم بالعلوم السائدة آنذاك فقال: (كان علقمة أبطن القوم به [أي أخبرهم وأطولهم عشرة له]. وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره، وكان الربيع بن خيثم أشد القوم اجتهاداً، وكان عبيدة يوازي شريحاً في العلم والقضاء)[٥].

هذا وقد ضمت مدرسة الكوفة زمن ابن مسعود علماء وقُرّاءً آخرين غير أولئك الستة. وأشارت المصادر الإقرائية إلى بعض أولئك القراء الذين عدتهم من الطبقة الأولى كانوا بعيدين، زمنياً، عن عصر ابن مسعود، ولكن الظاهر أنهم كانوا على صلة بتلاميذه، منهم سعيد ابن جبير وإبراهيم النخعي وعامر الشعبي. وممن عدوا من جماعة ابن مسعود، أو من معاصريه، ومن الطبقة الأولى من قراء الكوفة وعلمائها (الربيع بن خيثم) و(أبو وائل شقيق بن سلمة) و(زر بن حبيش) و(عبيد بن نضلة).

هذا وقد حصل تطور كبير على مدرسة الكوفة بعد حلول (أبو عبد الرحمن السلمي

---

(١) ابن بدران ٤٥٤/٥.

(٢) ابن حجر، أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، ج٧، (حيدر آباد ١٣٢٥) ص٢٧٧.

(٣) أيضاً ٢٧٧/٧.

(٤) أيضاً ٢٧٧/٧.

(٥) السيوطي، عبد الرحمن، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة ١٩٧٣) ص١٣.

wadod.org

ت٧٣ هـ) فيها وإقرائه الناس بالقراءة التي أمر بها الخليفة عثمان بن عفان (رض).

روى أبو عبد الرحمن السلمي عن عثمان وعلي وابن مسعود وإليه (انتهت القراءة تجويداً وضبطاً)[١] وهو (مقرئ الكوفة بلا مدافعة)[٢]. وكان السلمي قد أقرأ الناس القرآن الكريم منذ أن مارس القراءة زمن الخليفة عثمان حتى وفاته سنة ٧٣هـ (يعلم القرآن ويقرئه مع جلالة قدره وكثرة علمه وحاجة الناس إليه..)[٣]. وكان إمام مسجد الكوفة (يحمل الطين في اليوم المطير..)[٤].

جاءت شهرة السلمي بسبب كونه (.. أول من أقرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان.. الناس عليها..)[٥]. ويبدو أن قراءة السلمي كانت مصحوبة بالتدبر والتفسير والعمل فكان (.. يقرئ عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي ويخبرهم [أي الذين يستمعون إليه] بمواضع العشر والخمس ويقرئ الناس خمس آيات خمس آيات..)[٦]. وكان يقول: (أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشرة الأخرى حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به)[٧].

هذا وقد ضمت مدرسة الكوفة قرّاءً آخرين، منهم (يزيد بن عميرة السكسكي) تلميذ معاذ ابن جبل، و(أويس القرني) زاهد الكوفة المعروف. وعلى كل حال فأصحاب عبد الله بن مسعود كانوا حقاً (سرج هذه القرية) أي الكوفة، برأي الإمام علي بن أبي طالب[٨].

حلت بالكوفة بعد الطبقة الأولى من القراء طبقة ثانية، كانت كما يظهر، أكثر نضوجاً في علم القراءات، وتتكون تلك الطبقة من (يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، والأعمش، والزيات، والكسائي) ولا مجال للتوسع في الحديث عن مساهماتهم الإقرائية هنا. ومع ذلك فلابد من توضيح التطورات التي حدثت على القراءة في الكوفة منذ أيام ابن مسعود وحتى نهاية فترة قراء الطبقة الثانية.

---

(١) ابن الجزري، غاية النهاية ٤١٣/١.
(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣ (القاهرة ١٣٦٧هـ)، ص٢٢٢.
(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، تحقيق علي محمد الضباع (القاهرة، بدون تاريخ) ص٣.
(٤) ابن سعد ١٧٢/٦.
(٥) ابن مجاهد، أحمد بن محمد، السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف ،القاهرة ١٩٧٢) ص٦٧.
(٦) ابن سعد ١٧٢/٦.
(٧) ابن الجزري، غاية النهاية ٤١٣/١.
(٨) ابن سعد ١٠/٦.

wadod.org

يذكر ابن مجاهد، عالم القراءات المشهور، أن قراءة ابن مسعود كانت هي الغالبة على المتقدمين من أهل الكوفة، لأن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد أرسله إليهم ليعلمهم، وقد قرأ بقراءة ابن مسعود تلاميذه من بعده، ولم يزل الأمر كذلك، حتى جمع الخليفة عثمان الناس على قراءة واحدة، فقام بها في الكوفة (أبو عبد الرحمن السلمي) الذي أقرأ الناس زمناً طويلاً. وكان من تلاميذ السلمي القارئ الكوفي (عاصم بن أبي النجود) الذي كان يقرئ الناس بقراءة أستاذه (وإلى عاصم صار بعض أهل الكوفة وليس بالغالبية عليهم، لأن أضبط من أخذ عن عاصم أبو بكر بن عياش فيما يقال) وكان أهل الكوفة لا يأتمون قراءة عاصم بأحد ممن يثبتونه في القراءة عليه، إلا بأبي بكر بن عياش، وكان لا يكاد يمكن من نفسه من أرادها، فقلت بالكوفة من أجل ذلك، وعز من يحسنها، وصار الغالب على أهل الكوفة قراءة حمزة بن حبيب الزيات)[١]. والظاهر أن قراءة ابن مسعود استمرت بالكوفة ولكن بنطاق ضيق. وكان أشهر من قرأ بها (الأعمش) الذي كان من جملة من قرأ عليه الزيات[٢] ويوضح ذلك ابن مجاهد فيقول:(وكان حمزة ممن تجرد للقراءة ونصب نفسه لها، وكان ينحو أصحاب عبد الله، لأن قراءة عبد الله انتهت بالكوفة إلى الأعمش)[٣].

هذا ما أردت إيضاحه مختصراً عن مدرسة الكوفة، وقد فصلت الحديث عنه كتب القراءات وما جاءت به الدراسات النحوية والإقرائية قديماً وحديثاً.

الكوفيون والتفسير:

تناول العرب المسلمون القرآن الكريم بالدراسة والتفسير. وكان قراء القرآن الكريم من أوائل الذين اهتموا بتفسيره. وكان من أوائل الذين عرفوا بالتفسير بالكوفة مؤسس المدرسة (عبد الله بن مسعود). الذي كان منهجه يقوم علىتلاوة القرآن ومن ثم تفسيره. فكان إذا اجتمع إخوانه نشروا المصحف فقرؤوا وفسر لهم)[٤]. وقد عرف ابن مسعود ما نسخ من القرآن وما بدل كما يقول ابن عباس[٥]. وكان فخوراً بذلك فكان يقول لأصحابه، (ما نزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل والمطايا لأتيته)[٦].

(١) السبعة في القراءات، ص٧١.
(٢) أيضاً ص٧٤.
(٣) أيضاً ص٧٢.
(٤) ابن الجزري، غاية ٤٥٩/١.
(٥) أيضاً ٣٤٢/٢.
(٦) ابن سعد ٣٤٢/٢.

wadod.org

وفي رواية شقيق بن سلمة تلميذه قال:(خطبنا عبد الله فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم نيفاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي أني أعلم بكتاب الله. قال شقيق فجست في الخلق أسمع ما يقولون فما سمعت رداً يقول غير ذلك)[١].

هذا وقد حفلت مدرسة الكوفة بمجموعة طيبة من المفسرين، كان منهم محمد بن كعب القرظي الذي قال فيه عون بن عبد: (ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي)[٢]. وكان (زر بن حبيش) يفسر بعض الآيات عن ابن مسعود[٣]. وممن اشتهر بالتفسير بالكوفة أبو عبد الرحمن السلمي الذي كان (يقرئ عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي ويخبرهم بموضع العشر والخمس...)[٤]. ولم يكن أحدٌ أعلم بالقرآن من أبي العالية الرياحي[٥]، ومن مشاهير المفسرين بالكوفة (سعيد بن جبير) الذي أخذ كثيراً من علمه بالتفسير من ابن عباس[٦]. فكان أعلم التابعين بتفسير القرآن[٧]. وله كتاب فيه[٨]. وعن ورقاء بن إياس قال: (رأيت عزرة يختلف إلى سعيد بن جبير معه التفسير ومعه الدواة لعلها: يقيد..)[٩].

ومن مفسري الكوفة أبو صالح (صاحب التفسير الذي رواه عن ابن عباس ورواه عن صالح الكلبي محمد بن السائب)[١٠]. ويشير ابن النديم إلى أن أبا حمزة الثمالي كان له كتاب في التفسير (وهو من أصحاب علي من النجباء الثقاة..)[١١]. وكان عامر الشعبي من العارفين بالتفسير، إلا أنه كان حذراً من الخوض فيه فكان يقول: (والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل)[١٢]. وكان الشعبي ضد فكرة التفسير بالرأي وكان يقول: (إن الذي يفسر القرآن برأيه إنما يرويه عن ربه..)[١٣]. وكان لداود بن أبي هند كتاب في التفسير[١٤].

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح ٣٠١/٧-٣٠٢.
(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٢١/٩.
(٣) مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، ج١، (القاهرة ١٣٨٣هـ) ص١٠٩.
(٤) ابن سعد ١٧٢/٦.
(٥) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٢٢.
(٦) ابن سعد ٢٥٧/٦.
(٧) اليسوي، يعقوب بن إسماعيل، المعرفة والتاريخ، ج٢، تحقيق أكرم ضياء العمري (بغداد ١٩٧٦) ص١٦.
(٨) ابن النديم، الفهرست، (القاهرة، بدون تاريخ) ص٥٧.
(٩) ابن سعد ٢٦٦/٦.
(١٠) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، (القاهرة ١٩٥٦) ص٣٢٩.
(١١) الفهرست ص٥٦.
(١٢) اليسوي ٦٠٣/٢.
(١٣) أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٤، (القاهرة ١٩٣٥) ص٣٢١.
(١٤) ابن النديم، ص٥٧.

wadod.org

الكوفيون ورواية الحديث النبوي:

يمثل الحديث النبوي الشريف الركن الثاني من أركان الفقه الإسلامي، فهو، في أحيان كثيرة يمثل تفسيراً أو إيضاحاً لمعاني القرآن الكريم، أو يمثل جانباً تشريعياً أو إرشاداً ووعظاً. لذلك اهتم به المسلمون وأولوه الرعاية والعناية والحفظ.

كان عبد الله بن مسعود (قد علم القرآن وعلم السنة..) كما يقول الإمام علي[١]، وكان تلاميذه، كما يقول إبراهيم النخعي الفقيه الكوفي(.. يعلمون السنة.)[٢] بالكوفة. وعلى رأسهم علقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع وعبيدة السلماني وغيرهم. وكان (زر بن حبيش) (كثير الحديث)[٣]. وكان محمد بن سعد بن أبي وقاص قد سكن الكوفة (وكان ثقة وله أحاديث)[٤]. أما الأسود بن يزيد بن قيس، تلميذ ابن مسعود فقد كان ثقة وله أحاديث صالحة، وكان عامر الشعبي بالكوفة (أول من فتش عن الإسناد) في الحديث النبوي[٥]. كما كان الحارث الأعور الهمداني يروي عن علي بن أبي طالب عن النبي[٦]. وكان أبو رافع مولى رسول الله (ص) وكاتب الإمام علي (.. أول من جمع الحديث ورتبه بالأبواب..)[٧].

أما شقيق بن سلمة فكان كثير الحديث[٨]. أما الحكم بن عتيبة فكان (ثقة فقيهاً عالماً عالياً رفيعاً كثير الحديث)[٩] كما كان عبد الله بن شداد كثير الحديث أيضاً[١٠]. وكان أبو النجدي الطائي (كثير الحديث يرسل حديثه ويروي عن أصحاب رسول الله..)[١١]. أما سليمان بن مهران الأعمش فكان يروي أربعة آلاف حديث[١٢]. وقد أعجب لكثرة حديثه ابن شهاب الزهري عالم الشام الشهير فكان يقول: (والله إن هذا لعلم وما كنت أرى أن بالعراق أحدا

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/١٠٤.
(٢) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص١٤.
(٣) أيضا ص١٩.
(٤) ابن سعد ٦/٢٢.
(٥) الرامهرمزي، المحدث الفاضل، ص٢٠٨.
(٦) ابن قتيبة، محمد بن مسلم، عيون الأخبار، ج٢ (القاهرة ١٩٦٣) ص١٣٣.
(٧) القمي، عباس، الكنى والألقاب، ج١، (النجف ١٩٥٦) ص٧٦.
(٨) ابن سعد ٦/١٠٢.
(٩) أيضا ٦/٣٣٢.
(١٠) أيضا ٦/١٤٥.
(١١) أيضا ٦/٢٩٣.
(١٢) أيضا ٦/٣٤٣.

wadod.org

يعلم هذا)[١]. (كان ثقة ثبتاً بالحديث وكان محدث أهل الكوفة في زمانه)[٢].

والظاهر أن الكوفة قد ازدحمت بطلاب الحديث، فقد أشار ابن سيرين إلى أنه حين قدم الكوفة من البصرة وجد فيها (أربعة آلاف يطلبون الحديث..)[٣].

مدرسة الكوفة الفقهية:

في العهود الإسلامية الأولى نشأ الفقه الإسلامي وتطور، والظاهر أن ذلك قد تم بعد عصر الرسول (ص)، على أيدي القسم المثقف من الصحابة الذين عرفوا بـ(القراء). كما يرى ذلك ابن خلدون، ويشير ابن خلدون كذلك إلى أن اسم (القراء) قد تبدل بعد ذلك إلى ما سمي بـ(الفقهاء والعلماء) و(انقسم الفقه إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز)[٤].

والحق أن إطلاق لفظة أو مصطلح (أهل القياس والرأي) على أهل العراق فيه شيء من عدم الدقة، ذلك أن مدرسة الكوفة التي وصفت بهذه الصفة لم يكن فقهاؤها جميعاً قد اتصفوا بهذه الصفة، كما سنرى، فكيف بأهل العراق جميعاً؟.

لقد أورد القدماء والمحدثون من الدارسين ومؤرخي الحضارة والفكر أسباباً كثيرة لقيام مدرسة الرأي والقياس في العراق ومن تلك الأسباب: قلة الحديث النبوي الشريف في العراق، إضافة إلى ماضيه الحضاري القديم، وأعرافه وتقاليده وحياته الاجتماعية التي تختلف عن الحجاز، وكذلك تطور الحياة الفكرية فيه بتأثير الحضارات القديمة[٥].

إن الحديث عن قيام المدارس الفقهية مسألة قد درست كثيراً، ولا مجال للحديث عن ذلك الآن، وكل ما يهم كانت هذه السطور هنا لتبيان التطورات التي حدثت على مدرسة الكوفة الفقهية.

يبدو أن الرواد الأوائل لمدرسة الكوفة، ومنذ البداية، كانوا أصحاب فتيا ورأي، ذلك أن كلا الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (رض) كانا من أصحاب الرأي والفتيا والقضاء والاجتهاد، وكان لهما تأثيرهما على مدرسة الكوفة. وكان (عبد الله بن مسعود) وتلاميذه، وهم

---

(١) ابن عبد البر، ٣٤/٢.
(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٢٣/٤.
(٣) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٢٠.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، (بدون تاريخ)، ص٤٤٦.
(٥) انظر مثلا: ابن خلدون، المقدمة ص٤٤٤-٤٤٧، أحمد أمين، فجر الإسلام (بيروت ١٩٦٩) ص٢٤١- ٢٤٢.

wadod.org

المؤسسون لمدرسة الكوفة، أصحاب رأي وفتيا أيضاً، كما أشار إلى ذلك علي بن المديني الذي أشرت إلى رأيه سابقاً.

كان عبد الله بن مسعود من القائلين بالرأي[١]. وكان أصحابه أمثال علقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع وعبيدة السلماني وغيرهم يفتون الناس بالكوفة[٢]. ويفصل علي بن المديني الحديث عن أصحاب عبد الله وطبيعة نظرتهم إلى مسائل الفقه، فيذكر أن (أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله ومذهبه إبراهيم [النخعي] والشعبي، إلا أن الشعبي كان يذهب مذهب مسروق، يأخذ عن علي وعن أهل المدينة، وكان أبو اسحاق [السبيعي] وسليمان الأعمش أعلم أهل الكوفة بمذهب عبد الله وطريقه بعد هذين. وكان سفيان الثوري أعلم الناس بحديثهم وطريقهم بعد هذين..)[٣]. وقد ألقى عامر الشعبي فقيه الكوفة المعروف ضوءا آخرا على طبيعة مدرسة الكوفة، فقال بعد أن ذكر مشاهير أصحاب عبد الله: (وكان مسروق أعلم بالفتوى من شريح، وشريح أعلم بالقضاء، وكان عبيدة يوازيه..)[٤]. وفي حديث آخر للشعبي أن مسروقاً قد (خلط منه ومن غيره [أي من ابن مسعود وغيره] وكان الربيع بن خيثم أشد القوم اجتهاداً..)[٥]. وذكر محمد بن سيرين فقيه البصرة أصحاب عبد الله فقال: (أدركت الناس بالكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث ثنى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ثم علقمة الثالث لا شك فيه)[٦]. وهؤلاء (يقرئون الناس ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم)[٧].

إن أصحاب عبد الله كما يقول ابن عبد البر: (ممن حفظ عنه أنه قال وأفتى مجتهداً برأيه وقايساً على الأصول فيما لم يجد فيه نصاً)[٨].

هكذا بدأت في الكوفة، ومنذ عهد مبكر، مسائل القياس والاجتهاد، وكان لأصحاب ابن مسعود الفضل في تبلور ذلك الاتجاه.

---

(١) عبد الله، هاشم جميل، فقه الإمام سعيد بن المسيب، ج١، (بغداد ١٩٧٤) ص١٢٥.
(٢) ابن سعد ١٠/٦، ابن بدران ٤٥٢/٥.
(٣) ابن بدران ٤٥٢/٥.
(٤) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص١٣.
(٥) أيضا ص١٣.
(٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٧٧/٧.
(٧) أيضا ٢٧٧/٧.
(٨) جامع بيان العلم ٦١/٢.

wadod.org

كان إبراهيم النخعي تلميذ علقمة بن قيس، من أصحاب الرأي والقياس. فكان يقول: (ما كل شيء نسأل عنه نحفظه ولكننا نعرف الشيء بالشيء ونقيس الشيء بالشيء)[١]. ويقول أيضاً: (إني لأسمع الحديث فأقيس عليه مائة شيء)[٢]. وقد عرف عنه بأنه (صاحب قياس)[٣].

وفي الوقت الذي ازدهرت فيه دراسات الفقه في الكوفة. واتخذ القياس. إضافة إلى القرآن الكريم والسنة،ذلك الجانب الواضح في الحياة الفقهية في تلك المدينة. كان تيار الالتزام بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، وعدم العدول عنهما لا يزال يؤثر في تلك المدينة أيضاً. وكان عامر الشعبي الذي عرف بالكوفة بكونه (صاحب آثار) زعيم ذلك التيار بلا منازع.

كان الشعبي، كأهل المدينة، يعتمد في مسائل الفقه على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان يرى فيهما مصادر كافية ووافية لما يجب أن يقوم عليه الفقه الإسلامي. وفي حديثه مع أبي الزناد، عبد الله بن ذكوان قال: (يا ابن ذكوان إن جئت بها زيوفاً وتذهب بها جياداً. وربما قال: وترجع بها طياباً يعني فتيا أهل المدينة)[٤]. وكان الشعبي يحذر الناس من القياس ويقول: (إياكم والقياس، وإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام وحرمتم الحلال. ولأن أتغنى أغنية أحب إلي من أن أقول في شيء برأيي)[٥]. وكان يقول أيضاً: (.. اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة)[٦]. وقد استهدف الشعبي رجال القياس والرأي بالكوفة أمثال إبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وحماد بن أبي سليمان وهاجمهم بعنف.

ولكن يبدو أن تيار الرأي والقياس قد قوي في الكوفة. ممثلاً بالدرجة الأولى بشخصية ابراهيم النخعي الذي روى عن علقمة ومسروق. ودخل على السيدة عائشة. زوج الرسول (ص)، وأخذ عنها. وقد وصفه الذهبي بقوله: (وكان صيرفياً في الحديث)[٧]. ومن هنا يتضح أن الرجل لم يعتمد في فقهه على القياس والرأي وإنما اعتمد على الحديث أيضا.

---

(١) أيضاً ٦٦/٢.
(٢) أيضاً ٦٦/٢.
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٠٣/٤.
(٤) البسوي ٥٩٤/٢.
(٥) ابن عبد البر ٩٤/٢.
(٦) ابن بدران ١٤٠/٧.
(٧) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٧٤/١.

wadod.org

توفي إبراهيم النخعي في سنة ٩٦ هـ فخلفه حماد بن أبي سليمان، ففي رواية ابن سعد عن رواته عن مغيرة بن مقسم قال: (قلت لإبراهيم: من نسأل بعدك قال: حماداً)[١]. وفي رواية مغيرة بن مقسم أيضاً أنه لما مات إبراهيم (رأينا الذي يخلفه الأعمش، فأتيناه فسألناه عن الحلال والحرام فإذا لا شيء، فسألنا عن الفرائض فإذا هي عنده. قال فأتينا حماداً فسألنا عن الفرائض فإذا لا شيء فسألناه عن الحلال والحرام فإذا هو صاحبه. قال: فأخذنا الفرائض عن الأعمش وأخذنا الحلال والحرام عن حماد عن إبراهيم)[٢]. وكان حماد (إذا قال برأيه أصاب واذا قال عن غير إبراهيم أخطأ)[٣].

والظاهر أن حماد بن أبي سليمان لم يكن التلميذ الوحيد لإبراهيم النخعي،فكان من تلاميذه أيضاً الحكم بن عتيبة الذي يقول فيه الإمام أحمد بن حنبل: (الحكم أثبت الناس في ابراهيم)[٤]. كان ثقة ثبتاً فقهياً صاحب (سنة وأتباع)[٥].

هذا ويصور لنا أبو بكر بن عياش، أحد أعلام مدرسة الكوفة الفقهية، والتي تبلورت فيها مسائل القياس والرأي فيذكر أنه كان بالكوفة (ثلاثة ليس لهم رابع: حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة وحماد بن أبي سليمان، وكان هؤلاء الثلاثة أصحاب الفتيا وهم المشهورون)[٦]. وحماد بن أبي سليمان هو الذي كان يجادل الشعبي، والذي كان يغلبه في مجادلاته. ويروي أبو بكر بن عياش عن مغيرة بن مقسم (ما رأيت الشعبي وحماداً تماريا في شيء إلا غلبه حماد..) إلا في مسألة واحدة[٧].

هؤلاء الفقهاء هم (الآرائيون) الذين ضاق الشعبي بهم ذرعاً، والذين بغضوا إليه الجلوس والحديث في مسجد الكوفة[٨]. وهم أصحاب الرأي. وحماد بن أبي سليمان (فقيه الكوفة بعد النخعي القائم بفتواها وهو معلم أبي حنيفة)[٩].

---

(١) ابن سعد ٦/٣٣٣.
(٢) أيضا ٦/٣٣٢-٣٣٣.
(٣) أيضا ٦/٣٣٣.
(٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١/١١٧.
(٥) أيضا ١/١١٧.
(٦) ابن سعد ٦/٣٢٠.
(٧) ابن عبد البر ٢/٨٧.
(٨) أبو نعيم ٤/٣٢٠.
(٩) ابن عبد البر ٢/١٥٣.

wadod.org

والحق أن الحديث عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠ هـ) حديث طويل، فهو فقيه أهل الكوفة وصاحب مدرستها المعروفة باسمه. وقد تناولته الدراسات الفقهية قديماً وحديثاً، وهو أشهر من أن نتحدث عنه بهذه العجالة.

الكوفيون ودراسات الأدب العربي:

أسهم الكوفيون في مجالات الدراسة الأدبية والنحوية، وكان لهم دورهم في تدوين الأدب العربي.

تحدث مؤرخو الأدب قديماً وحديثاً عن أسباب تدوين وقيام الحركة الأدبية في الكوفة، وكذلك في البصرة، وبينوا أسباباً كثيرة لنشوء تلك الدراسات. وكان من أهم الأسباب تلك المفاخرات بين القبائل، كما كان للقراءات القرآنية دورها الهام في تثبيت وإدراك طبيعة العلاقة بين القراءة الصحيحة وبين ما له علاقة بالنحو العربي ورسم المصحف وما إلى ذلك، فالقراء مثلاً كانوا شديدي الحرص على (أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً فصيحاً إلى أبعد حدود الفصاحة ..)[١]. وهذا الأمر أدى إلى (.. عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها)[٢]. وفي الحلقات القرآنية (زرعت بذور المدرس اللغوي، لأن القراءة تثير من مسائل اللغة ما لا قبل لجميع الناس به يومئذ)[٣]. تلك الأمور وسواها والتي لا مجال للحديث عنها الآن، أدت إلى ازدهار دراسات الأدب العربي.

يبدو أن الاهتمام بدراسة النحو في الكوفة كان الأسبق من غيره من فنون الأدب العربي، فقد اتجهت طائفة من القراء في الكوفة (إلى تصحيح متن القرآن عن طريق الرواية..)[٤]. ويشير المرحوم المخرومي في دراسته القيمة عن مدرسة الكوفة فيذكر أن (هذه المدرسة تقوم على شيوخ حفظوا القرآن، ورووا قراءاته عمن عاصروه من الصحابة ولازموه، وأخذوا يلقنون تلاميذهم والمقبلين على معرفة القراءات وما رووه هم عن الصحابة الذين رووا قراءة النبي.. أو أقرهم النبي على قراءاتهم، وتخصصوا بهذا الجانب من العمل الإقرائي..)[٥].

---

(١) شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط.الثالثة، القاهرة ١٩٧٦) ص١١.
(٢) مقدمة الأستاذ أوتوبرتزل لكتاب أبي عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، (اسطنبول ١٩٣٠) ص ج.
(٣) الحلواني، محمد خير، المفصل في تاريخ النحو العربي، ج١ (بيروت ١٩٧٩) ص١١.
(٤) المخرومي، مدرسة الكوفة، ص٢٠.
(٥) أيضا، ص٢٢.

wadod.org

وقد ظهر من أصحاب عبد الله بن مسعود من كان مهتماً بالنحو، فكان زر بن حبيش (أعرب الناس، وكان عبد الله [ابن مسعود] يسأله عن العربية..)[١]. وكان من قراء الكوفة من كان مهتماً بالدراسات النحوية ومن أولئك الأعمش، وعاصم بن أبي النجود الذي كان (من أعلم أهل الكوفة بالنحو..) وما سمع أنه يلحن[٢]. ويصدق القول على قارئ الكوفة المتأخر نسبياً علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٠هـ) الذي وصف بكونه أعلم الناس بالنحو والعربية، وكان الناس يستمعون إلى قراءته (وينقطون مصاحفهم على قراءته)[٣]. واشتهر عامر الشعبي بالنحو وكان (عربياً فصيحاً)[٤]. وقد أحل النحو المقام الأول وكان يقول (النحو في العلم كالملح في الطعام)[٥] (وكان أهل الكوفة كلهم يأخذون عن أهل البصرة)[٦].

والظاهر أن اهتمام أهل الكوفة بالأدب العربي كان متميزاً (فكان الكوفيون بصيرين بأشعار العرب ومطلعين عليها، وكان الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة..)[٧]. ويرى بلاشير أنه منذ حوالي ٤٠ هـ وهو الوقت الذي ظهرت فيه دراسة الأدب بالبصرة (ظهر في التاريخ ذاته جيل من الشعراء ولدوا في تلك المدينة [الكوفة] من أبوين اصلهما من شبه الجزيرة العربية..)[٨]. كما ظهرت في تلك المدينة مجموعة من الشعراء، أمثال زر بن حبيش الذي نسبت إليه بعض الأبيات الشعرية ذات الطابع الزهدي. واشتهر من أهل الكوفة في النقد الأدبي عامر الشعبي الذي كان راوية للشعر، وقيل إنه كان شاعراً وناقداً لشعر العرب القديم والمعاصر. وكان الشعبي أثيراً لدى الخليفة عبد الملك بن مروان الذي كان يسأله كثيراً عن الشعر. وقد أعجب به الخليفة وقال له مرة: (يا شعبي إنك لكنف علم)[٩]. وكانت له مجادلات في الشعر والنقد مع أشهر شعراء عصره وهو الأخطل[١٠].

---

(١) ابن سعد ١٠٥/٦.
(٢) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص٧٠.
(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣١٤/٧.
(٤) البسوي ٣٠٦/٢.
(٥) ابن عبد البر ٢٠٦/٢.
(٦) نخبة من المؤرخين العراقيين، العراق في التاريخ (بغداد ١٩٨٣) ص٣٠٩.
(٧) أيضاً ص٣٠٨.
(٨) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ج٣، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني (دمشق ١٩٧٤) ص٧١.
(٩) ابن بدران ١٤٧/٧.
(١٠) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني ج٨، (بيروت ١٩٥٥) ص١٦٢، ج٩، ص٣٤١-٤٦، ج٢٠، ص٣١٤-١٦.

wadod.org

الكوفيون والدراسات التاريخية:

الحق أننا لا نستطيع أن نميز بين مدرسة تاريخية للكوفة وأخرى للبصرة، فكلا المدرستين تمثلان المدرسة العراقية التي نشأت تحت تأثير ظروف العراق الجغرافية والسياسية والحضارية. وما أضيف إليها من تأثيرات قبائلية وإسلامية بعد حركات التحرير. وتلك مسائل لن نتطرق إليها فقد درسها علماء أفاضل وأسهبوا فيها[١].

إن دور كاتب هذه السطور هو التفتيش عن نتاجات الرواد الأوائل من مؤرخي الكوفة وإيضاح مدى مساهماتهم في التدوين التاريخي العربي، ولكن ذلك يفرض على الباحث أن يشير سريعاً إلى أن الكتابة التاريخية في العراق وغيره مرت بثلاثة أطوار، الطور الأول: هو طور الرواية الشفهية المتناقلة على أفواه الناس من رواة وغيرهم، والطور الثاني: هو طور التدوين لمساعدة الذاكرة وليس لغرضٍ تاريخي علمي، أما الطور الثالث: فهو التدوين لغرض علمي تاريخي تستقصى فيه الأخبار، وتوضح فيه المناهج ويبحث عن طبيعة الرواة ومدى وثوق مروياتهم، وما إلى ذلك مما تتطلبه الصناعة التاريخية. وغرض الكاتب، كما أشرت، عرض مجهودات رواة الطور الأول وما له علاقة بالطور الثاني، ذلك أن الطور الثالث وما ظهر فيه من مؤلفات، ومن أعلام ومن مناهج إنما أنضج في القرن الثالث على الأكثر، وهو خارج عن نطاق هذه الدراسة.

يبدو أن الدراسات التاريخية في الكوفة كانت أسبق في ظهورها من البصرة. فقد رويت عن شيخ المدرسة الأول (عبد الله بن مسعود) مرويات كانت تتعلق بأحداث التاريخ الأولى[٢] وكانت لتلميذه (مسروق بن الأجدع) بعض من المرويات التاريخية، كما رويت بعض الأخبار عن (زر بن حبيش)[٣]. وكان لبعض أصحاب الإمام علي (رض) وتلاميذه الدور المميز والواضح في رواية الأحداث التاريخية، ومن أولئك على سبيل المثال (الأصبغ بن نباتة) الذي روى عن علي كتابه إلى مالك الأشتر، ومن أصحاب علي الذين رووا عنه أيضاً (أبو حمزة الثمالي) و(جابر الجعفي) و(سليم بن قيس الكوفي الهلالي)[٤] . وعن الأخير يذكر ابن النديم

---

(١) أمثال الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور شاكر مصطفى والدكتور عبد الجبار ناجي.

(٢) ابن سعد ١٦/٦، ابن حجر، الإصابة ٢٧٨/٢، الأصفهاني ٣٦/٣.

(٣) ابن حجر، الإصابة ٥٠٩/٣، وكان يروي عن أم رومان وهي والدة السيدة عائشة، انظر البخاري. التاريخ الصغير، (القاهرة ١٩٧٧) ص٣٨.

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم النجف ١٩٦١ ص٦٢، ٦٦، ٧٠.

wadod.org

أن له كتاباً في التاريخ، رواه عنه (أبان بن أبي عياش لم يروه عنه غيره)[١]. وكان عبيد الله بن أبي رافع كاتب الإمام علي قد ألف كتاباً أسماه (تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان من الصحابة رضي الله عنهم)[٢]. ويقال إنه أول من ألف في المغازي والسير والرجال في الإسلام[٣].وكان زياد والي الكوفة قد كتب في الأنساب. وقد رويت بعض الأخبار التاريخية عن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى[٤]. وكانت مساهمات عامر الشعبي رائدة في مجال الدراسات التاريخية، فقد شهد الرجل أحداث الكوفة وساهم فيها، وروى عن بعض مشاهيرها مباشرة وبشكل غير مباشر. وقد اطلع على بعض الوثائق وقد روى له بعض المؤرخين كالبلاذري والطبري[٥].

هذا وقد أورد لنا الدكتور شاكر مصطفى أسماء بعض رواة الكوفة، ومنهم (عطية بن الحارث الهمداني) الذي اعتبره من كبار رواة الكوفة ومفسريها، وقد أخذ عن الشعبي و(محذم بن سليمان بن ذكوان) الذي كان كاتباً ليوسف بن عمر والي الكوفة، وقد سمح له يوسف بالإطلاع على بعض الوثائق. وكان لهذا الرجل اهتماماته الخاصة بأخبار الفتوح، وكذلك التنظيمات الإدارية والمالية[٥].

هذا ولا بد من الإشارة أخيراً إلى جهود (عوانة بن الحكم) المتوفى سنة ١٤٧ هـ وهو كما يقول ابن النديم: من علماء الكوفيين رواية للأخبار عالماً بالشعر والنسب وكان فصيحاً)[٦]. وقد تحدث عن مجهوداته في الكتابة التاريخية الدكتور حسين نصار[٧].

تلك نبذة مختصرة عن أوائل مؤرخي الكوفة الذين كان لهم دورهم في رفد التاريخ العربي بالمرويات التي وجدت صداها في مؤلفات كبار المؤرخين العرب.

---

(١) الفهرست ص٣٢١.
(٢) الطوسي، ص١٣٣.
(٣) شاكر مصطفى عن الذريعة ١٨١/٤.
(٤) ابن حجر، الإصابة ٣٧٨/٣، ابن سعد ٨٢/٣، الطبرسي ٤٧٧/٤.
(٥) كتب عنه كاتب هذه السطور دراسة لا تزال مخطوطة استعرض فيها جهوده بشكل واف.
(٥) التاريخ العربي والمؤرخون، ج١ (بيروت ١٩٧٩) ص١٧٥.
(٦) ابن النديم، الفهرست، ص١٤٠.
(٧) نشأة التدوين التاريخي عند العرب، (القاهرة، بدون تاريخ) ص٦٠-٦٣.

wadod.org

موقف البصريين من الكسائي الكوفي

□ الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي

الكسائي علي بن حمزة أبو الحسن الكوفي النحوي المقرئ أحد الأئمة السبعة[1] المشهورين في القراءات، وإمام المدرسة البصرية في علم النحو واللغة ولأدب (ت: ١٨٩هـ).

لازم الكسائي في أيام الأخذ والتلقي جملة من علماء القرآن والعربية، فأحكم اللغة والنحو على إمام النحويين في عصره الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ)، وهو بصري، وأحكم القراءات على حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات: (ت: ١٥٦هـ) وهو كوفي، وعاصر أبا جعفر الرؤاسي وتلميذه معاذ بن مسلم الهراء: (١٨٧هـ) وهما إمامان كبيران كوفيان في النحو والصرف واللغة، وحين قدم البصرة أخذ على أبي عمرو (٥٤م) يونس (١٨٢هـ) وعيسى ابن عمر: (١٤٩هـ) وكانوا ذوي تخصص في علم القراءات واللغة والنحو، فذكر أبو زيد الأنصاري: (٢١٠هـ) أنه التقى هؤلاء العلماء واستكثر عنهم[2] علما كثيراً صحيحاً، ووصفه بعد ذلك بما لا يليق فطعن في علمه، كما سنرى.

لقد احتل الكسائي في عصره الموقع الأول في القراءات وذكروا أنه اختار من قراءة حمزة الذي لازمه مدة يأخذ عنه ويتيقن قراءته، وضم اختياره إلى قراءات آخرين استمع إليهم، وأخذ عنهم أمثال عيسى وأبي عمرو وغيرهما، وكوّن لنفسه طريقة قرائية متوسطة عرفت باسمه، واشتهرت في أوساط الناس به[3].

---

(١) أنظر السبعة لابن مجاهد: ٧٨.

(٢) أخبار النحويين البصريين: ٤٤.

(٣) انظر: السبعة: ٧٨ وتاريخ بغداد: ٤٠٩/١١ والنشر: ١٧٣/١.

wadod.org

ومع أن هذا الرجل تتلمذ على أئمة بصريين، وأخذ عنهم واعترف له بالفضل جملة منهم، كان الموقف العام من البصريين غير محمود، ولا معقول، وذلك أن البصريين كانوا يعتدون بمكانهم في الدرس اللغوي والنحوي، وينظرون إلى من سواهم أنهم عيال عليهم، وأن منهجهم العقلي، وطريقتهم في معالجة أمور اللغة، والنحو والعلوم المختلفة، تتسم بالدقة، وصحة النتائج، وبعد النظر والمنطق الصائب، وان من يجالسهم ويأخذ عنهم لا بد أن يحكم ما أخذه، ويسلك فيه مسلكهم، ويصدر فيه عنهم، ولذا كانت المنافسة بينهم وبين غيرهم من الباحثين في الأمصار الأخرى، ولا سيما الكوفة وبغداد وغيرهم، شديدة قاسية، تدفعهم إلى التقول والانتقاض، وحدّة النقد والنقض.

وإذا كان الكسائي الكوفي قد وصف بأنه: (واحد الناس في القرآن)[١]. وأن الشافعي: (٢٠٤هـ) قد قال فيه: (من أراد أن يتجر في النحو فهو عيال على الكسائي)[٢] وأن يونس النحوي البصري قد شهد له بأن الذين رأسوه في الكوفة رأسوه باستحقاق، بعد مسألة بينه وبينه[٣]. وغير ذلك من الأقوال التي تضع الكسائي موضعاً سامياً بين علماء البصرة، وهم على ما هم عليه من الاعتداد بالنفس، والشعور بالتعالي.

وكان من علماء البصرة من يحاول أن ينقص من علم الكسائي بعلة يفتعلها في نفسه، ويعتقد صحتها، ويشيعها في الناس، ليبدو علم الكسائي من خلالها متأرجحاً بين الصحة والفساد، فأبو زيد الأنصاري البصري يعطيك صورة مهزوزة عن علم هذا الرجل، إذا تدبرتها رأيت فيها سلاحاً ذا حدين إذا رجحت أحدهما قدحت بالثاني، وبالتالي انتهيت إلى تضعيف الكسائي، ورميه بعدم الدقة وصحة العلم، يقول أبو زيد: (قدم الكسائي البصرة، فأخذ عن أبي عمرو ويونس وعيسى بن عمر، علماً كثيراً صحيحاً، ثم خرج إلى بغداد، فقدم أعراب الحطمة، فأخذ عنهم شيئاً فاسداً، فخلط هذا بذلك فأفسده)[٤] وفي كلام الأنصاري أكثر من قضية يثيرها:

---

(١) تاريخ بغداد: ١١/٤٠٩.

(٢) نفسه: ١١/٤٠٦.

(٣) انظر: إنباه الرواة: القفطي: ٢/٢٦٥.

(٤) معجم الأدباء: ٣/١٨٢.

wadod.org

الأولى: أن علم البصريين هو الصحيح دون غيرهم.

الثانية: الانتقاص من الكسائي بأخذه كلاماً فاسداً من أعراب الحطمة.

الثالثة: أن الأعراب الوافدين على بغداد وهي عاصمة الدولة الإسلامية يومئذ، لم يكن لسانهم مرضياً، ولا فصيحاً، ونسي أبو زيد أن القرن الذي يتكلم عنه هو القرن الثاني، وأن من كان يفد في هذا القرن على (البصرة)، و(الكوفة) و(بغداد) هم أعراب فصحاء كان علماء اللغة والنحو يعوّلون عليهم، ويستفيدون منهم بعد أن استقر أكثر اللغويين في أمصارهم ومدنهم مشغولين بالدرس النحوي واللغوي، ومن ضمن من يأخذ عنهم علماء البصرة أنفسهم، ذلك أن هؤلاء الأعراب الوافدين على الحواضر لم يصابوا بالعجمة واللحن، كانت سلائقهم العربية سليمة من الخلل[١]، وكان لهم تأثيرٌ كبير في سرد الشواهد والأمثلة.

فوصف الأنصاري علم الكسائي بالضعف والفساد يرجع إلى المنافسة بين المدينتين، والحسد من عند أنفس البصريين، لعلماء الكوفة، وربما يدخل في هذا الحسد ما لقيه علماء الكوفة في دور الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة من مكانة رفيعة، والميل اليهم والاستئثار ببعضهم لتدريس أبنائهم[٢]. وفي المسألة الزنبورية بين سيبويه البصري، والكسائي الكوفي ما يشهد بمثل هذه المواقف التي كان ينالها الكوفيون، في مجالس أولي الأمر.

وأبو زيد الأنصاري نفسه لا يستطيع أن ينكر ما للكسائي من مكانة علمية، حين يرجع إلى الحق وإلا نصاف، فهو يقول فيه: (كان الكسائي إذا اخذ معي في اللغة والشعر هوى، وإذا أخذ في النحو علا)[٣].

وهذه شهادة حقيقية وموضوعية، يصرفها الباحثون، فأبو زيد لم يكن نحوياً بمقدار ما هو لغوي عارف بفصيحها و لهجاتها وغريبها ونادرها، وشاذها، وكثيرها وقليلها ومستعملها ومتروكها ولم يصل إلينا من كتبه في النحو شيء،

---

(١) انظر: تاريخ آداب العرب: الرافعي: ٣٤٦/١، والنحويون والقراءات القرآنية: د. زهير زاهد/ مجلة آداب المستنصرية: عام ١٩٨٧، العدد: ١٥. ص:١١٢.

(٢) مراتب النحويين: ٧٤.

(٣) أخبار النحويين البصريين: ٤٤.

wadod.org

ولكن الذي وصل إلينا آثار اللغة كالنوادر والغريب ورسائل اللغة، شأنه في ذلك شأن الأصمعي: (٢١٦هـ)[١].

ولعل أبا زيد أكثر البصريين تحاملاً على الكسائي، وأكثرهم تقولاً عليه، فقد شهد للكسائي من البصريين علماء عاصروه ووقفوا على ذهنه اللغوي البارع، وحفظه لنصوص اللغة، وعلمه بأسرارها، لا سيما لغة القرآن الذي كان فيه إماماً لا يجاري ـ كما سبقت الإشارة ـ فهذا عيسى بن عمر النحوي البصري، يعترف بعلو كعبه، وصواب آرائه العلمية، يلتقي أبا الحسن في مجلس من المجالس، وهل ذلك اللقاء كان أول لقاء معه، فيسأله: (أنت الكسائي؟) فيقول له الكسائي: نعم، فيقول له عيسى: (كيف تقرأ هذا الحرف: (أرسله معنا غداً)[٢] ماذا؟ قال ـ الكسائي ـ (يرتع ويلقب) قال له عيسى: لمَ لم تقرأها: (يرتعي ويلقب) فتثبت الياء، أو تشير إليها[٣]؟ فقال الكسائي: إنّما هي من: (رتعت) لا من (رعيت)، فقال له: عيسى بن عمر: صدقت يا أبا الحسن)[٤].

فهذا فهم دقيق، وعلم هادف بلغة القرآن ومعانيه جلب اعترافاً من بصري متعصب لجماعته، وليس يرتاب أحد من القدماء ممن جالسوا الكسائي واستمعوا إليه وهو يتكلم أنه كان فصيح اللسان عربي اللهجة واضح الإعراب يقول الزبيري فيه) فصيح اللسان لا يغطي لكماله ولا يخيل إليك أنه يعرب، وهو يعرب)[٥].

ويشهد له بصري آخر، بحقه وتقدمته، وهو يونس بن حبيب يجتمع معه في مجلس علم وأدب، فيدفعه فضوله إلى أن يقدم له أسئلة اختبارية، يريد من خلالها أن يكشف عن مقدار علمه، فحين يستمع إلى أجوبته يجد يونس نفسه مضطراً إلى الاستحسان والشهادة له بعلو الكعب، فيقول له: (ما أحسن ما قلت!)، اشهد أن الذين رأسوك رأسوك باستحقاق)[٦]، ثم لا يرى يونس بعد

---

(١) انظر: ضحى الإسلام: ٢/٧٠.

(٢) يوسف: الآية: ١٢.

(٣) يعني تختلس حركتها، بأن يشم الميم حركة الكسر.

(٤) مجالس العلماء: الزجاجي: ٢٦٣.

(٥) طبقات النحويين واللغويين: ١٤١.

(٦) الإنباه: ٢/٢٦٥.

wadod.org

اكتشافه مكانة هذا الرجل من العلم، والمعرفة إلا أن يترك له موضعه، ويصدره في المجلس لينتفع به الناس وطلبة العلم[١].

وجرى على منوال أبي زيد في متابعة الكسائي ونقده والطعن عليه أبو حاتم السجستاني: (٢٥٥هـ)، تلميذ أبي زيد، كان السجستاني كثير التعصب للبصريين، كثير التحامل على الكوفيين، فقد حاول أن يبرر شهرة الكسائي وظهوره في مجالس العلم، والدرس اللغوي والنحوي والقرائي بما لا يقبله المنطق العلمي ولا الموضوعي، فقد نفى عن الكوفيين جملةً أن يكونوا علماء بشيء، ثم وصف الكسائي منهم بأنه كان يرتاد قصور الخلفاء وولاة الأمور فارتفع اسمه وعلا شأنه، يقول أبو حاتم: (لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب، ولو لا أن الكسائي دنا من الخلفاء، فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل، إلا حكايات عن الأعراب مطروحة، لأنه كان يلقنهم ما يريد)[٢].

والمنعم النظر في مقولة أبي حاتم السجستاني يجد:

أولاً: أنه متحامل متعصب، لأن رجالات مدرسة الكوفة كان لهم شأن كبير في علوم القرآن واللغة والأدب وسائر فروع المعرفة.

ثانياً: أن الدنو من الخلفاء ليس وقفاً على الكسائي، بل كان الأصمعي وأبو عبيدة: (٢١٢هـ)، والمازني: (٢٤٨هـ) وغيرهم ممن يرتادون قصور الخلفاء، ويستدعون للتعليم والتدريس والمناظرة.

ثالثاً: أن أبا حاتم يشير خلال مقولته إلى اختلاف منهج المدرستين: مدرسة البصرة المعتمدة على الحجج العقلية والعلل والتأويلات المنطقية، ومدرسة الكوفة المعتمدة غالباً على السماع، ونقل حكايات الأعراب الفصحاء، وليس يحق لأبي حاتم أن يصف النقل والسماع من الأعراب بأنه حكايات مطروحة، لأن اللغة إنما أخذت سماعاً ونقلاً، ثم استنبطت الأحكام والقواعد[٣] من خلال النصوص المسموعة.

---

(١) بغية الوعاة: ٢/١٦٣، وطبقات الزبيدي: ٣٨.

(٢) مراتب النحويين: ٧٤ ومعجم ياقوت: ١٢/١٩٠.

(٣) أنظر الاقتراح: ١٨.

wadod.org

رابعاً: أنه يشير في الجملة الأخيرة إلى ما حصل بين سيبويه: (٦٨٠هـ) والكسائي، مما عرف بالمسألة الزنبورية[١]، وقد وصم البصريون الكسائي بأنه لقن الأعراب أن يقولوا كما يرى، وهي مقولة لم يحققها البحث العلمي الدقيق، ولا ثبتت بالرواية المسندة الصحيحة.

والمعروف ـ رداً على أبي حاتم ـ أن الكسائي قد خرج إلى البادية، وبقي فيها مدة في مرحلتين اثنتين، الأولى: حين كان يلزم حمزة الزيات، فقد رأى أنه لا بد له من أن يخالط العرب الفصحاء، ويستمع إلى اللغة من أفواههم ليستعين بها على فهم القرآن الكريم، ومعرفة لهجات العرب[٢].

والثانية: حين أخذ بكلام الخليل بن أحمد بعد أن كان لازمه، فتركه وساح في أرض العرب ينقل اللغة ويدوّن نصوصها[٣] من لسان النجديين والحجازيين وتهامة.

ولا يعقل إنسان أن هاتين السياحتين قد استغرقتا أربعين يوماً، كما نقل بعض الباحثين[٤]، في حين يقدرون مدة بقاء أبي عمر بن العلاء: (١٥٤هـ) بأربعين سنة، وهو قول يشم من خلاله رائحة التعصب على الكسائي ـ أيضاً ـ، فان قلة ملازمة العرب في باديتها يؤدي إلى قلة الأخذ والإلمام بلغتهم، ومن ثم يصبح علم الكسائي ـ من بعد هذه المقولة المفرضة المتعصبة ـ قليلاً وضعيفاً وناقصاً، في حين ينقل الزجاجي: (٢٢٧هـ) في المجالس، أن الكسائي: (كسائي اسمه وصوته، لم نلق أحداً أعلم منه)[٥]، ويقول في موضع آخر: (لم نر مثل الكسائي ولا نرى مثله أبداً)[٦]. ويقول ياقوت الحموي: (٦١٦هـ): (لو لم يكن لأهل بغداد من علماء العربية إلا الكسائي والفراء، لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس)[٧].

---

(١) تنظر هذه المسألة في مجالس العلماء: ص: ٨ ـ ١٠.

(٢) أنظر: مجالس الزجاجي: ٢٦٦ فما بعد.

(٣) البغية: ٢/١٦٢.

(٤) في أصول النحو: الأفغاني: ١٩٩.

(٥) المجالس: ١٧٣.

(٦) نفسه: ٢١٢

(٧) معجم الأدباء: ١٣/١٨٢.

wadod.org

فمن أين جاء هذا العلم الـذي يشـهد لـه بـه الزجـاجي وغـيره ممـن ترجـم لـه، وعني بأخباره، وهـل يمكـن أن يلـم بكـل ذلـك مـن سـاح في أرض العـرب أربعـين يوماً، إن ما تقوله البصريون على الكسـائي في هـذا المضمـار ينسـاق وراء التعصـب الأعمى الذي لا يعرف للحقيقة وجهاً.

ومن العجيب أن الذين كانت أهواؤهم مع البصريين مـن علمـاء القـرون التـي تلـت القرنـين الثـاني والثـالث الـهجريين ظلـوا في مستوى التفكـير المتعصـب علـى الكوفيين عموماً، وعلى الكسـائي خصوصـاً، فـهذا ابـن درسـتويه (٣٤٧هـ) يصـم الكسائي بالفساد في النحو، والاعتماد على الضرائـر، والبنـاء علـى الشـاذ، يقـول ابن درستويه:

(كان الكسائي يسمع الشاذ الـذي لا يجـوز إلا في الضـرورة، فيجعلـه أصـلاً، ويقيس عليه، فأفسد بذلك النحو)[١].

والمتأمل في هذا الـذي يقولـه ابـن درسـتويه، يجـد ترديـداً لمقـولات أبـي زيـد، وأبـي حـاتم، ممـن كـان موقفـهم معـه تعصبيـاً حـاداً، وقـد سـبق أن أشـرت إلـى أن الكسائي إنما يعبر عن منهجه الذي سارت عليه جماعة الكوفيين من الاعتماد علـى المسموع، والبناء على ما ينقل من لسان العرب شعرها ونثرها.

والشاذ الذي يشير إليه ابن درستويه ليس وقفـاً علـى الكوفيـين ـ وحدهـم ـ بـل لقد شاركتهم فيه جماعة البصريين، فخرجوا كثيراً من قواعد الكـلام علـى الشـعر والأمثال، على الرغم من كون الشـعر أحيانـاً غـير معـروف قائلـه، أو جـاء نـادراً، وهذا المازني البصري يقف على قول الإمام علي (كرم الله وجهه): [من الرجز]

« أنا الذي سمتني أمي حيدرة »

فيقبله، وان كان قليلاً نادراً، لأن الوجه في اللغة ـ عندهم ـ أن يقال:

« أنا الذي سمته أمه حيدرة »

بضمير الغيبة، وإنما قبله، لأنه كلام الإمام علـي وهـو فصيـح، لا غبـار علـى صحة لهجته العربية[٢]، ولاشتهاره.

---

(١) بغية الوعاء: ٢/١٦٤.

(٢) يقـول المـازني: (لـولا اشـتهار مـورده وكثرتـه لرددتـه) شـرح الحماسـة للمرزوقـي: ٢/٨٦٨ و١/١١٥، وانظر كتابنا: أبو عثمان المازني: ص١٥٦ ـ ١٥٧.

wadod.org

والبصريون يستشهدون بقول حسان: [من الوافر]

كـأن سـلافة مـن بيـت راس يكـون مزاجـها عسـلاً ومـاء

بنصب « عسلاً » ورفع « ماء »، وللبيت رواية أخرى برفع « عسل »، وله روايات أخر، وتقديرات مختلفة، وكل ذلك ينتهي بنا إلى أنّ ما يقال في سماعات الكوفيين، واستشهاداتهم بما هو مروي ومنقول من كلام العرب شعره ونثره، سواء قل هذا المروي أم كثر، قد لا يختلف الموقف بين المدرستين، وتتفق الآراء مع اختلاف المنهجين،

والبصريون ـ كذلك ـ يعتمدون الشاهد ويبنون عليه، وان كان فيه بعض الخروج عما قعدوه، لكونه مروياً عن ثقة، وتكثر في كلامهم مثل هذه الأحكام التي نجدها في كتبهم نحو:

(فإن الشاعر شبه ألف النصب بهاء التأنيث حين قال عظايه وصلايه، وما أشبه، ولو لا أنه أخبرنا به من نثق براويته وضبطه لما أجزناه، ولجعلناه همزاً)[١].

ومن الأمثال التي تمثل ـ غالباً ـ خرقاً لقواعد اللغة وخروجاً عن الأصول، وشذوذاً عن السليم من التعبير استشهادهم بالمثل: (لو غير ذات سوار لطمني) يقول المازني: (يقول النحويون: لطمتني، فأخذت (غير) قول النحويين وتركت قول العرب)[٢].

والبصريون هم الذي يروون ما كان فعلاً تعجبياً من الرباعي أو الخماسي شذوذاً عن القاعدة في ذلك، نحو: (ما اتقاه لله) وما انتنه...، فروى المازني منها ما يقرب من عشرين مثلاً، سردها الميداني في مجمع الأمثال[٣].

فهذه الأمثلة والشواهد، من شعر ونثر، وردت على لسان نحويي البصرة، لا تمثل المطرد من كلام العرب، ويغلب على الكثير منها الشذوذ والندرة والقلة، فإذا كان البصري قد روى مثل ذلك وأودع تصانيفه منها، واتخذها شواهد على قلتها، فقد نهج ما نهجه الكسائي من الكوفيين، ولم يختلف عنه، ولم يكن فيما

---

(١) المنصف: ١٥٥/٢ و١٢٢/٢.

(٢) الفاضل: المبرد: ص٤٢ ط: دار لكتب.

(٣) مجمع الأمثال: ٨٢/١.

wadod.org

فعله هذا أو ذاك إفساد للغة ونحوها، كما يدعي ابن درستويه الذي سار على نهج أبي زيد والسجستاني في تعصبه على الكوفيين عموماً وعلى الكسائي خصوصاً.

والكسائي في نظر علماء الكوفة إمام لا يجارى، ولا يتقدمه أبو زيد، ولا يدرك شأوه، وهذا ابن الأعرابي الكوفي: (٢٣١هـ) يقول: (كان الكسائي أعلم من أبي زيد بكثير في العربية واللغات والنوادر)[١]، وإنما خص ابن الأعرابي العربية واللغات، والنوادر لأنها من تخصص أبي زيد، وقد كان البصريون يرفعون من شأنه في هذه الأمور، ويجعلونه إماماً في النوادر والغريب والعربية، فكان الأصمعي: (٢١٦هـ) يقول فيه[٢]: (هذا عالمنا ومعلمنا منذ عشرين سنة).

وكان سيبويه يقول في (الكتاب) عنه: (أخبرني الثقة) و(حدثني الثقة)[٣]. وكانوا يجعلونه أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة في النحو[٤].

فرجل في هذا الموقع المتميز من سائر البصريين، لا يرتضي تلاميذه وطلابه أن يظهر عليه عالم آخر عاصره، وبرز في أكثر من علم وفن، وخاصة علماء مدينة الكوفة التي أخذت مكانها في القرن الثاني، وأصبحت تنافس البصرة في مجال الإبداع والتصنيف في علوم القرآن والعربية والحديث والفقه، والفنون المختلفة المتنوعة، وظهر فيها رجال لهم شأن في مجالات العلوم العقلية والنقلية، كأبي حنيفة (رحمه الله)، وحمزة الزيات، والفراء(٢٠٧هـ)، وابن السكيت (٢٤٤هـ) وأبي عمر الشيباني (٢١٣هـ) وثعلب: (٢٩١هـ)، وأبي محمد الأنباري: (٣٠٤هـ)، وابنه أبي بكر بن الأنباري: (٣٢٨هـ) وغيرهم ممن حفلت بذكرهم كتب الرجال والتراجم والطبقات.

والحق أن موقف البصريين من الكوفيين، ومن بينهم (الكسائي) كان رهين أكثر من دافع وعامل، ولعل أبرز الدوافع في تفسير مثل هذا الموقف يمكننا رصده في:

---

(١) معجم الأدباء: (ط. دار المأمون): ١٢/١٨٩.

(٢) نزهة الألباء: ٨٥: (تحـ: إبراهيم السامرائي).

(٣) مراتب النحويين: أبو الطيب ٧٦.

(٤) الزهر: ٢/٤٠٨.

wadod.org

أ ـ المنافسة بين المدينتين، سواء أكانت هذه المنافسة بين الأفراد، أو الجماعتين، وقد اتضح ذلك في موقف أبي زيد من الكسائي.

ب ـ الاختلاف المذهبي والمنهجي بين جماعتي المدينتين، وذلك أن البصريين أصحاب نظر عقلي، وتأويل وتعليل، وأخذ بمنهج القياس، في حين كان الكوفيون أولي سماع ونقل، ورفض لسيطرة العقل وتعليلاته لمسائل اللغة وظواهرها المختلفة، وقد جرَّ هذا إلى أن تكون القراءات القرآنية عند الكوفيين مرجعاً لتأكيد قواعد الكلام، وسنن العربية، في حين جعل البصريون قواعدهم، وأصولهم اللغوية مرجعاً لتأكيد اطراد القراءات أو شذوذها.

ج ـ الحظوة التي نالها أكثر الكوفيين عند الخلفاء والأمراء وأولي الشأن أثارت حسد بعض البصريين، كما رأينا موقف أبي حاتم السجستاني من (الكسائي) واتهامه بارتياد قصور الأمراء والمسؤولين[1].

د ـ بروز الكسائي في القراءات، إلى جانب حمزة الزيات في الكوفة، بإزراء أبي عمر وبن العلاء البصري، وشهرته بين علماء عصره بالقراءة المختارة المتوسطة المتميزة من قراءات الآخرين، مما جعل ابن مجاهد: (٣٢٤هـ) بعد ذلك يتخذه واحداً من القراء السبعة المشهورين.

---

(١) ينظر: معجم الأدباء: ١٢/١٩٠.

wadod.org

استقرار قبيلة همدان في الكوفة حتى نهاية العصر الأموي

الأستاذ الدكتور: محمد كريم إبراهيم الشمري

بعد الانتهاء من معركة القادسية التي شاركت فيها قبيلة همدان[١]، أصبحت التركيبة القبلية التي تولت مهمة استكمال تحرير العراق واضحة، هذه التركيبة التي اعتبرت أساساً لتكوين القوات، واعتبرت أيضاً أساساً تنظيمياً عند إسكان هذه القبائل في قاعدة الكوفة. لأن القبيلة هي الوحدة الأساسية في التجنيد والاشتراك في القتال، إذ كانت بعض القبائل المتقاربة في النسب تُجمع في وحدات كبرى[٢]، لذلك أنزلت القبائل في بادىء الأمر على السِكك والمناهج، وكانت منظمة وفق التنظيم العسكري الذي نظمت بموجبه القبائل العربية في منطقة (شراف)[٣] قبل اشتراكها في معركة القادسية، وبموجب هذا التنظيم جعل لكل عشرة من المقاتلة العرب المسلمين: عريف، ولكل عشرة عرفاء: أمير، ثم صاحب الراية للقبيلة[٤].

كانت خطة همدان في الشمال الغربي من الكوفة بين ثقيف وطيىء في الشمال، وبجيلة وتميم في الغرب[٥]، ولهمدان المنهج الثالث[٦]، إلا أنه ونتيجة لازدياد أعداد المقاتلة الروادف، الذي أوجد تبايناً في نظام الأعشار، اتجه الخليفة عمر بن الخطاب(رض) إلى تعديل نظام الأعشار إلى: الأسباع، ليوجد توازناً في تنظيم القبائل

---

(١) الهمداني. الإكليل ج١٠ ص١١٥، ٢٤٣.

(٢) العلي. التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٤٠.

(٣) شراف: في الطرف الغربي من القرعاء، بينها وبين واقصة ثمانية أميال من الأحساء التي لبني وهب. الحموي، معجم البلدان ٣/ ٣٣١.

(٤) الطبري. تاريخ ٣/ ٤٨٨، ٤٩٠ ـ ٤٩١، ابن الأثير. الكامل في التاريخ ٢/ ٣١١.

(٥) المصدر نفسه ٤/ ٤٥، خارطة ماسنيون ص ٣٩.

(٦) ماسنيون. خطط الكوفة ص ٦٤، الزبيدي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، ص ٣٠.

wadod.org

في الكوفة، فكتب إلى قائده سعد بن أبي وقاص: «أن عدلهم، فأرسل إلى قوم من نُسّاب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم فعدلوهم من الأعشار فجعلوهم أسباعاً»[١].

ضم السُّبع الذي فيه همدان قبيلتي حمير ومذحج[٢]، وقد أخذت أعداد المقاتلة من أهل اليمن بالازدياد في الكوفة، ومن ضمنهم الهمدانيون، واشار (الشعبي[٣]) إلى هذه الظاهرة بقوله: «كنا [يعني أهل اليمن] اثني عشر ألفاً، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى أنّا أكثر أهل الكوفة»[٤].

أشارت الروايات إلى كثرة رافدة همدان في الكوفة في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض)، واعتراضهم على والي الكوفة سعيد بن العاص، وذلك لعدم كفاية عطاء السُّبع الواحد، ومن بينهم يزيد بن قيس الأرحبي[٥]. وازدادت أعداد الهمدانيين أيضاً مع المقاتِلة الآخرين إبان خلافة الإمام علي بن أبي طالب (رض). ويمكن أن يتوضح لنا ذلك من خلال التغيير الذي أجراه على أسباع الكوفة، بعد انتقاله إليها واتخاذها عاصمة للخلافة، ومن بينها السُّبع الذي يضم قبيلة همدان، وذلك بأن أخرج منه قبيلة (مذحج)، وأصبح يضم همدان وحِميَر، وهذه التشكيلة الأخيرة هي التي أسهمت معه في معركتي الجمل وصفين[٦].

ونستنتج أيضاً من خلال إشارة عمر بن سعد أن أعداد الهمدانيين المشاركين في معركة صفين، بلغت أربعة آلاف فارس[٧]، وتشير رواية أبي مخنف إلى تعبئة معاوية

---

(١) الطبري، تاريخ ٤/ ٤٨.

(٢) عن أسباع الكوفة، ينظر: الطبري. تاريخ ٤/ ٤٨، ماسنيون: خطط الكوفة ص ٤٢ ـ ٤٨، البراقي. تاريخ الكوفة ص ١٢٢، د. شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ص ١٠٣، الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة ص ٧٩، الزبيدي: الحياة الاجتماعية ص ٤٢ ـ ٤٥، الحديثي: أهل اليمن ص ١٩٥ ـ ١٩٧، جمال محمد جودة: العرب والأرض في العراق، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) أبو عمر بن شراحيل المتوفى ما بين أعوام (١٠٣ ـ ١٠٥هـ/ ٧٢١ ـ ٧٢٣م)، ولد في الكوفة عام ١٩هـ/ ٦٤٠م، وهو في الأصل من حمير ومن همدان فيها، ثم هو كوفي ومن التابعين. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ج١/ ١٧٥.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٦.

(٥) الطبري: تاريخ ٤/ ٣١٧ ـ ٣١٨، ٣٣٦، عرموش: الفتنة الأولى ووقعة الجمل ص ٤٤ ـ ٤٧.

(٦) حول إعادة تنظيم هذه الأسباع، ينظر: نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ١١٧، الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٤٦، ١٧١ ـ ١٧٢، الطبري: تاريخ ٤/ ٥٠٠، ماسنيون: خطط الكوفة ص ٤٩ ـ ٥٠، الجنابي: تخطيط الكوفة ص ٧٩ ـ ٨٠، الزبيدي: الحياة الاجتماعية ص ٤٤.

(٧) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ٤٥٣، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/ ٢٣٩.

wadod.org

لجنده في صفين ضد قبائل كثيرة العدد ـ منها همدان ـ التي ذكرها، بقوله: «وضرب معاوية لحمير سهماً على ثلاث قبائل، لم يكن لأهل العراق أكثر منها عدداً يومئذٍ، على ربيعة وهمدان ومذحج»[١].

وبسبب كثرة الهمدانيين في الكوفة فقد عرفوا بـ: حي أهل الكوفة[٢]، و: حي أهل العراق[٣]، ومن الجدير بالذكر أن قبيلة همدان اختصت (انفردت) باستقرارها في الكوفة دون غيرها من أمصار العراق، ذكر السمعاني مفاخرة أهل الكوفة مع أهل البصرة بالقبائل التي نزلت المِصْرَين، فما ذكر أهل الكوفة قبيلة إلا وذكر أهل البصرة جماعة منها نزلت بينهم، إلى أن وصل أهل الكوفة إلى ذكر اسم همدان، فسكت أهل البصرة واعترفوا أن ليس بمصرهم واحد من قبيلة همدان[٤]. ولعل هذا كان من بين الأساليب التي دفعت زياد بن أبيه إلى إعادة تنظيم الأسباع في أرباع، فضم ربع همدان إلى تميم[٥].

ومن الإشارات الواردة في المصادر، تتبين لنا كثرة أعداد الهمدانيين في الكوفة، والذين توزعوا في الخطط التي ضمتها منازل القبيلة وغيرها من القبائل الأخرى، ولعل اليعقوبي كان دقيقاً حول هذه الملاحظة، عندما ذكر أن همدان قد تفرقت في الكوفة[٦].

ويمكن حصر خطط البطون الهمدانية في الكوفة بما يلي:

أولاً ـ خطط بطون حاشد وأولها:

أ ـ خطة السبيع:

وهم الذين يرجع نسبهم إلى معاوية بن كثير بن مالك بن جشم بن حاشد[٧]، وهي من الخطط الواسعة في منطقة الكوفة، بين الميدان وسط الكوفة وبجيلة من جهة

---

(١) وقعة صفين، ص٢٩٠، الطبري. تاريخ ٥/ ٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣١١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣٣.
(٤) الأنساب ٥/ ٦٤٧.
(٥) الطبري: تاريخ ٦/ ١٥٠ ـ ١٥٢، وحول دوافع زياد، ينظر: حسن: القبائل العربية في المشرق ص ٨٥.
(٦) كتاب البلدان ص ٣١١.
(٧) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٥، السمعاني: الأنساب ٣/ ٢١٨ ـ ٢١٩، الحازمي: عجالة المبتدي ص ٧٢، الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٨٧، ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ٢/ ١٠٢.

wadod.org

الغرب[١]، ولهم فيها جبانة (مقبرة) السبيع، وكانت من أماكن التحشد عند اضطراب الأوضاع في الكوفة في العصر الأموي[٢]، ونظراً لأهميتها جعل الحجاج بن يوسف الثقفي مقر إقامته فيها عند قدومه إلى الكوفة[٣]. وقد امتلك عدد من أفراد هذا البطن في عهد الدولة الأموية. عدة ضياع وإقطاعات في السواد[٤]. ومنهم أيضاً في الكوفة: بطن الحوثان، نسبة إلى حوث بن عبد الله بن السبيع[٥].

ب ـ خطة الخارف:

ويبدو أنها كانت قريبة من منازل السبيع، وذلك بسبب قوة صلة النسب التي تربطهما، وأشارت المصادر إلى نزول هذا البطن الكوفة واختطاطه فيها[٦]. ومن خطط بطون دافع بن مالك خطة وادعة[٧]، وتقع هذه الخطة فيما بين جبانة السبيع ومنازل ناعط القريبة من خثعم[٨]، منهم خطة البطن (دألان) القريبة من منازل وادعة[٩].

جـ ـ خطة يـام:

وهي لا بدّ أن تكون قريبة من منازل وادعة، وذلك بسبب قوة الصلة النسبية التي كانت أساساً لتوزيع سكنى هذه البطون[١٠].

---

(١) خارطة ماسنيون، ص ٣٩، ٥٩.

(٢) ابن الكلبي: نسب معد ٢/ ٢٥١، البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٨٠، اليعقوبي: البلدان ص ٣١١، الطبري: تاريخ ٦/ ١٨، ٤٥، ٤٧، ابن حزم: جمهرة ص ٣٩٥.

(٣) الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٨٧، ماسنيون: خطط الكوفة ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) الطبري: تاريخ ٦/ ١٢٣ ـ ١٢٤، ١٣٠. ماسنيون: خطط الكوفة ص ٧٤.

(٥) ابن الكلبي: نسب معد ٢/ ٢٥١، الهمداني: الإكليل ١٠/ ٤١، ابن حزم: جمهرة ص ٣٩٥.

(٦) ابن الكلبي: نسب معد ٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، ابن سعد: الطبقات ٦/ ١٢٩ ـ ١٣٠، ابن ماكولا: الإكمال ٣/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦، الحازمي: عجالة ص ٥٣، ابن الأثير: اللباب ١/ ٤١٠، كحالة: معجم قبائل العرب ١/ ٣٢٤.

(٧) ابن الكلبي: نسب معد ٢/ ٢٤٩، ابن سعد. الطبقات ٦/ ١٠٦ ـ ١٠٧، ١١٩، ١٢١، ١٧٨، ١٩٦ ٣٠٥ ـ ٣٠٦، ٣١١، ابن قتيبة: المعارف ص ١٠٥، السمعاني. الأنساب ٥/ ٦٥٠ ـ ٦٥١، الحازمي. عجالة المبتدي ص ١٢٣، ابن الأثير. اللباب ٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥، أسد الغابة ٥/ ٢٩.

(٨) تنظر: خارطة مسانيون ص ٥٩.

(٩) ابن ماكولا، الإكمال ٣/ ٣٠٦.

(١٠) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٤٨، ابن سعد. الطبقات ٦/ ٥٩، ٢١٥، ٣٠٨ ـ ٣٠٩، البستي، مشاهير ص ١١٠، ابن حزم. جمهرة ص ٣٩٤، السمعاني. الأنساب ٥/ ٦٨٧، الحازمي. عجالة المبتدي ص ١٢٤.

wadod.org

خط شبام[١]:

وخطتهم بين ثور وفائش وخثعم، ودورهم بعد بدور الفائشيين[٢].

ومن عمرو بن جشم:

هـ ـ خطة الصائديين[٣].

و ـ ومن بطون حاشد الأخرى التي نزلت الكوفة واختطت فيها:

خيوان[٤]، ذو بارق (جعونة)[٥]، وحجور[٦]، وفائش الجابر بن قادم[٧]، والناشري[٨].

ثانياً ـ خطط بطون بكيل: وقد توزعت في الكوفة كالآتي:

أ ـ خطة الثوريين[٩]:

وتقع بين مسجد عبد القيس ومسد أحمس، وتمثل الطرف الغربي لخطة قبيلة همدان، باتجاه طريق النخيلة، لذلك أشار نصر بن مزاحم إلى أن أول دور دخلها الإمام علي بن أبي طالب (رض) عند عودته من صفين، هي دور

---

(١) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ٢٧٣، ٤٢٧، ابن سعد: الطبقات ٦/ ١٧٠ ـ ١٧١، الطبري. تاريخ ٦/ ٢٣، ٢٨، السمعاني. الأنساب ٣/ ٣٩٥، ابن الأثير. اللباب ٢/ ١٨٢.

(٢) نصر بن مزاحم. وقعة صفين ص ٥٣١، تنظر: خارطة ماسنيون ص ٥٩.

(٣) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٥٢، ابن سعد. الطبقات ٦/ ٢٢٢، الهمداني. الإكليل ١٠/ ٩٧، ابن حزم. جمهرة ص ٣٩٥، السمعاني. الأنساب ٣/ ٥١٤، الحازمي. عجالة ص ٨٠، ابن الأثير. اللباب ٢/ ٢٣٢، ابن حجر. الإصابة ٣/ ٦٧٧.

(٤) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٤٢، ابن سعد. الطبقات ٦/ ٢٢١، خليفة. تاريخ ص ٢٦١، ٢٧٥، ابن ماكولا. الإكمال ٢/ ٥٨١، ابن الأثير. اللباب ١/ ٤٧٩، يقول الحموي: «وولد زيد بن مالك: مالكاً وهو خَيوان، ويقال خيوان من حمير، وقابضاً، فمن خيوان: سعد وهو ذو ذَيْم بن قيس بن مالك، ومن خيوان: آل أبي معبد». المقتضب من كتاب جمهرة النسب، ص ٣٧٦.

(٥) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٤٦، ابن دريد. الاشتقاق ٢/ ٤٢٣، ابن حزم. جمهرة ص ٣٩٣، ابن الأثير. اللباب ١/ ٤١٨.

(٦) الهمداني، الإكليل ١٠/ ٩٧.

(٧) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٣٩، ابن دريد. الاشتقاق ٢/ ٤٢٠، الهمداني. الإكليل ١٠/ ١٠٥، البستي. مشاهير ص ١٠٩، ابن الأثير. اللباب ٢/ ٤١٠.

(٨) الحازمي. عجالة المبتدي ص ١١٦.

(٩) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٥٣، البستي. مشاهير ص ١٧، الهمداني. الإكليل ١٠/ ١٣٢، ابن حزم. جمهرة ص ٣٩٦، ابن ماكولا. الإكمال ٦/ ٥٨٦، السمعاني. الأنساب ١/ ٥١٧، الحازمي. عجالة المبتدي ص ٢٧، ابن الأثير. اللباب ١/ ٢٤٤.

wadod.org

الثوريين[١]، وإليهم نسبت خطة الثويين في الكوفة[٢]، وإلى القرب منهم خطة الفائش بن شهاب[٣].

ب ـ خطة مرحبة بن الدعام[٤].

جـ ـ خطة أرحب بن الدعام[٥].

د ـ خطة يناع في بني دمان[٦].

هـ ـ خطة آل ذي لعوة والأحموس[٧].

و ـ خطة شاكر:

التي يرد ذكرها مع شبام وأرحب، وقد يعود ذلك إلى تقارب منازلهم في الكوفة[٨].

ومن الفرع عمرو بن همدان.

ز ـ خطة الناعطيين[٩]:

ومنهم آل ذي مران، ومنازل ناعط ما بين خثعم ووادعة، ولهم منازل أخرى بين قبيلة ثقيف وجبانة بشر[١٠].

---

(١) وقعة صفين ص ٥٣١، وتنظر: خارطة ماسنيون ص ٥٩.

(٢) الطبري. تاريخ ٥/ ٦٢، ٦/ ٢٩.

(٣) نصر بن مزاحم. وقعة صفين ص ٥٣١، ابن سعد. الطبقات ٦/ ٢١٤، الحازمي عجالة ص ١٠٠.

(٤) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٥٩، ابن سعد. الطبقات ٦/ ٢٩٣، ٣٦٢، خليفة. تاريخ ص ٢٨٠، الطبري. تاريخ ٦/ ٢٥٣، الهمداني. الإكليل ١٠/ ١٣٧، ابن حزم. جمهرة ص ٣٩٦، السمعاني. الأنساب ٥/ ٢٦٦، ابن الأثير. اللباب ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٥) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٥٤، نصر بن مزاحم. وقعة صفين ص ١١، ٨٥، ١٤٦، ٢٤٧، ٢٦٨، ٤٩٧، ابن سعد. الطبقات ٦/ ١٧١، اليعقوبي. تاريخ ٢/ ١٧٦، الهمداني. الإكليل ١٠/ ١٧٢ ـ ١٧٣، ابن حزم. جمهرة ص ٣٩٦.

(٦) ابن سعد. الطبقات ٦/ ١٧٠، ابن ماكولا. الإكمال ٦/ ١٧١، ١٧٣.

(٧) الهمداني. الإكليل ٢/ ٢٤٠، ١٠/ ١١٤.

(٨) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٥٤، نصر بن مزاحم. وقعة صفين ص ٢٧٧، ٤٢٧، الطبري. تاريخ ٦/ ٢٢، ٢٤، ٢٢٢، ٢٦٩، الهمداني. الإكليل ١٠/ ٢٤٣، خارطة ماسنيون ص ٥٩.

(٩) ابن الكلبي. نسب معد ٢/ ٢٤٠، ٢٤١، ابن سعد. الطبقات ١/ ٦٣، ٨٤. الطبري. تاريخ ٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، ٢٣٨، الهمداني. الإكليل ١٠/ ٣٨، ابن حزم. جمهرة ص ٣٩٣. السمعاني. الأنساب ٥/ ٢٤٩، ابن الأثير. اللباب ٣/ ١٩١.

(١٠) تنظر: خارطة ماسنيون ص ٥٩.

wadod.org

تستنتج من خلال ما ذكرناه عن مناطق استقرار الهمدانيين خارج اليمن، وبصورة خاصة في الكوفة، أن من استقر منهم في العراق كان أكثر بكثير من بقية الأماكن الأخرى، يتضح ذلك من كثرة الخطط التي نزلوها في الكوفة، والتي تعكس لنا ـ في الوقت ذاته ـ حجم مشاركتهم في الأحداث التي مرت بمصرهم.

ولا بدّ لنا من الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بالتوزيع الجغرافي لقبيلة همدان خارج اليمن، ألا وهي ما ذكرها بعض المؤرخين حول استقرار قبيلة همدان في أماكن متعددة خارج اليمن، إلا أنه لم تبقَ لهم قبيلة بعد تفرقهم إلا في اليمن الوطن الأم[١].

ولعل الإجابة عن هذه المسألة تستدعي منا فرض أكثر من احتمال، في مقدمتها دراسة ارتباط همدان بالظروف السياسية بصورة خاصة، التي مرت بها مناطق استقرارها خارج اليمن، على أن نأخذ بالاعتبار فاعلية همدان ونشاطها الذي استمر حتى نهاية عصر الدولة الأموية.

إن دراسة هذه الفاعلية بصورة علمية دقيقة متأنية، هي التي تجيب على ذلك الفرض أو الاحتمال، لكن هذا الأمر ـ بلا شك ـ سيكون له مجال آخر لدراسته تفصيلاً، وبذلك يقع خارج نطاق بحثنا، لكننا سنكتفي بالإشارة إلى أهم المصادر التي تناولت هذا الموضوع المهم[٢]، لمن يريد متابعة هذه المسألة وتقصي جذورها.

مصادر ومراجع البحث

أ ـ المصادر القديمة:

(*) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٥، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، منشورات دار الشعب.

٢ ـ الكامل في التاريخ، ج٢، ط٢، دار صادر، (بيروت، ١٩٦٥).

٣ ـ اللباب في تهذيب الأنساب، ج١ـ٣، مطبعة السعادة، (القاهرة، ١٣٥٦هـ).

(*) البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).

---

(١) ابن خلدون: العبر (تاريخ ابن خلدون) ٢/ ٥٢٥، القلقشندي: قلائد الجمان ص ٩٩، السويدي: سبائك الذهب ص ٣٣. ويشير ابن حزم إلى استقرار همدان في الأندلس، وإن دار همدان فيها كانت في (البيرة)، لكن دون ذكر خططهم أو أعدادهم فيها. جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٧.

(٢) الطبري: تاريخ ٦/ ٨٠، ١٣٢، ٧/ ١٦٦، المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٣٥، ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٦٥، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٤/ ٥٨، ١١/ ٤٣ ـ ٤٦، حسن. القبائل العربية في المشرق ص ٨٣ ـ ٨٥، جودة: العرب والأرض في العراق ص ١٧٨.

wadod.org

(*) البستي، محمد بن حبان (ت٣٥٤هـ/ ٩٦٥م).
٤ ـ مشاهير علماء الأمصار: تصحيح م. فلاشهمر، مطبعة لجنة التأليف، (القاهرة ١٩٥٩).
٥ ـ فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٧٨).
(*) الحازمي، أبو بكر محمد بن وسى، (ت٥٨٤هـ/ ١١٨٨م).
٦ ـ عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، تحقيق: عبد الله كنون، (القاهرة، ١٩٦٥).
(*) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).
٧ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣، مطبعة دار السعادة، ط١، (القاهرة، ١٣٢٨هـ).
(*) ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله، (ت٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).
٨ ـ شرح نهج البلاغة، ج٢، ٤، ١١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط١، (القاهرة، ١٩٥٩).
(*) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م).
٩ ـ جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٧١).
(*) الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).
١٠ ـ معجم البلدان، ج٣، منشورات دار صادر، (بيروت، ١٩٥٥).
١١ ـ المقتضب من كتاب جمهرة النسب، ج١، تحقيق د. ناجي حسن، ط١، الدار العربية للموسوعات، (بيروت، ١٩٨٧).
(*) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م).
١٢ ـ تاريخ ابن خلدون، المسمى: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، (بيروت، ١٩٦٦).
(*) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت٣٢١هـ/ ٩٣٣م).
١٣ ـ الاشتقاق، ج٢، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، منشورات مكتبة المثنى، (بغداد، ١٩٧٥).
(*) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م).
١٤ ـ الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، ط١، (القاهرة، ١٩٦٠).
(*) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م).
١٥ ـ الطبقات الكبرى، منشورات دار صادر ودار بيروت، (بيروت، د.ت).
(*) السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور، (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م).
١٦ ـ الأنساب، ج٣، ٥، تعليق: عبد الله عمر البارودي، ط١، دار الجنان، (بيروت، ١٩٨٨).
(*) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م).
١٧ ـ تاريخ الرسل والملوك، ج٣ ـ ٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطابع دار المعارف، (القاهرة، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٩).
(*) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م).
١٨ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١ (مطبوع بهامش كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني)، مطبعة السعادة، ط١، (القاهرة، ١٣٢٨هـ).
(*) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م).

wadod.org

١٩ ـ المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، مطبعة دار الكتب، (القاهرة، ١٩٦٠).
(*) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م).
٢٠ ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١، (القاهرة ١٩٦٣).
(*) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، (ت٢٠٤هـ/ ٨١٩م).
٢١ ـ نسب معد واليمن الكبير، ج٢، تحقيق: محمد فردوس العظم، دار اليقظة العربية، (دمشق، د.ت).
(*) ابن ماكولا، أبو نصر علي بن هبة الله، (ت٤٧٥هـ/ ١٠٩٠م).
٢٢ ـ الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ج٢، ٣، ٦، تصحيح الشيخ: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، (حيدرآباد الدكن، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٧م).
(*) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).
٢٣ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، باعتناء يوسف أسعد داغر، ط١، (بيروت، ١٩٦٥).
(*) المنقري، نصر بن مزاحم، (ت٢١٢هـ/ ٨٢٧م).
٢٤ ـ وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، مطبعة المدني، (القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).
(*) الهمداني، لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، (ت.د٣٣٤هـ/ ٩٤٥م).
٢٥ ـ الإكليل، ج١، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط١، (القاهرة، ١٩٦٣). ج٢، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط١، (القاهرة، ١٩٦٦). ج٨، تحقيق: نبيه أمين فارس، منشورات دار العودة، (بيروت، د.ت). ج١٠، تحقيق: محب الدين الخطيب، (القاهرة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م).
(*) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، (ت.د٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).
٢٦ ـ البلدان (مطبوع بعد كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته)، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٩١).
٢٧ ـ تاريخ اليعقوبي، ج٢، (النجف الأشرف، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

ب ـ المراجع الحديثة:

(*) البراقي، حسين بن أحمد.
٢٨ ـ تاريخ الكوفة، ط٣، (النجف الأشرف، ١٩٦٣).
(*) الجنابي، د. كاظم.
٢٩ ـ تخطيط مدينة الكوفة، ط١، مطابع دار الجمهورية، (بغداد، ١٩٦٧).
(*) جودة، جمال محمد.
٣٠ ـ العرب والأرض في العراق في صدر الإسلام، الشركة العربية للطباعة والنشر، (عمان ١٩٧٩).
(*) الحديثي، د. نزار عبد اللطيف.
٣١ ـ أهل اليمن في صدر الإسلام. ط١، دار الطليعة للنشر، (بيروت، ١٩٧٨).
(*) حسن، د. ناجي.

wadod.org

٣٢ ـ القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، (بغداد، ١٩٨٠).

(*) الزبيدي، د. محمد حسين.

٣٣ ـ الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، المطبعة العالمية، (القاهرة، ١٩٧٠).

(*) السويدي، أبو الفوز محمد أمين البغدادي.

٣٤ ـ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، منشورات مكتبة المثنى، (بغداد، د. ت).

(*) عرموش، أحمد راتب.

٣٥ ـ الفتنة الأولى ووقعة الجمل (رواية سيف بن عمر)، ط١، دا النفائس، (بيروت، ١٩٧٢).

(*) العلي، د. صالح أحمد.

٣٦ ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط١، مطبعة المعارف، (بغداد، ١٩٥٣).

(*) فيصل، د. شكري.

٣٧ ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، ط٤، منشورات دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٧٨).

(*) كحالة، عمر رضا.

٣٨ ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج١، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٦٨).

(*) ماسنيون، المسيو لويس.

٣٩ ـ خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة: تقي المصعبي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط١ (المحققة)، مطبعة الغري الحديثة، (النجف الأشرف، ١٩٧٩).

(*) مصطفى، الأستاذ شاكر.

٤٠ ـ التاريخ العربي والمؤرخون، ج١، منشورات دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٧٨م).